دكتور
سيد حمدي فريد

المدخل
إلى
دراسة البلاغة

١٩٧٨

توزيع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على من آتاه الله جوامع الكلم ، سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله المبعوث للناس كافة وعلى آله وصحبه ومن تبعه .

وبعـــد :ـ

فموضوع هذا البحث ، والمشكلة التى تعالجها فصوله تجربة ذاتية لى مع الدرس البلاغى طالبا ومعلما .

وهى : مقدمة البلاغة ، ومايتبغى أن تكون عليه وفاء بمقاييس البلاغة نفسها .

وأرجو أن يكون ما قدمته قد حدد شيئين هامين لكل من يعالج مشكلة وهما : الداء المعين والدواء المناسب .

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

د . فتحي عبد القادر فريد

خطة البحث

اشتمل البحث على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة هى على الترتيب

١ ــ المقدمة .

٢ ــ الفصل الأول : البلاغة بين التجديد والتقليد .

٣ ــ « الثانى : البلاغة واللغة .

٤ ــ « الثالث : الفصاحة .

٥ ــ « الرابع : البلاغة ومقتضى الحال .

٦ ــ « الخامس : البلاغة والمجتمع .

٧ ــ موجز البحث.

الفصل الأول

البلاغة بين التجديد والتقليد

يتناول هذا الفصل النقاط التالية :-

١ – التجديد سنة الحياة .
٢ – موقف البلاغة العربية من قضية التطور .
٣ – اتجاهات التجديد فى البلاغة .
٤ – الإمام الشيخ « محمد عبده » وكتب عبد القاهر
٥ – الاتجاه النفسى .
٦ – الاتجاه البيانى .
٧ – الاتجاه الأدبى .
٨ – الاتجاه التربوى
٩ – رأينا فى تجديد البلاغة

التجديد سنة الحياة

الحياة شأنها التطور ، وحالها التبدل والتغير ، ولذا تعددت الرسالات ، وتعاقبت ، الديانات ، تحمل كل منها شريعة تناسب ظروف أهلها ، غير صالحة لمن كان قبلهم ولا لمن يرد بعدهم ، فما إن بلغت الإنسانية رشدها حتى اصطفاها الله بدين معجزته بيانية عقلية ، فيها نظام حياة الكون ، ومنهج سعادة الإنسان فى كل زمان ومكان ،معجزة لاتتغير بتغير العصور ولا يوثر فيها كر الدهور ، بل لايزيدها مر العصور الإجدة ونضارة ، ولاتعاقب الأجيال إلاصمودا ورسوخا «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[1]».

فكل شيء فى الدنيا يخضع لناموس التطور وسنة التحول ، ومن ذلك العلوم والمعارف والثقافات والفنون تتغير عصراً عن عصر وتتطور من جيل لآخر تطورا يلائم روح العصر ، ويناسب ظروف أهله ، ومالم يستجب منها لسنن التطور وفقا لمتطلبات العصر بان شذوذه ، ووضح جموده، وظهر من أفراد العصر من ينادى بتطوير ه ، ويدعو لتجديده ، ويعمل على تحريكه ليمضى مع الحياة ، ويعبر عن المجتمع .

وتراثنا البلاغى من هذا الناموس التطورى الذى هو أمر طبعى وشىء ضرورى لاستمرار الحياة وبقاء الكون لم يكن حظه واحدا فى كل أطواره، ولانصيبه من التطور والتجدد متفقا فى جميع مراحله ، فقد خضع فى مرحلة من مراحله لهذا الناموس ، وعبر عن هذا التطور كتب البلاغة التى كتبها أصحابها فى هذه المرحلة ،فقدكانت صدى للحياة الأدبية والنقدية التى كانت فى عصرها، كاكان يحمل كل منها طابعا معينا بحيث ندر أن التقينا بكتاب يكون صورة من كتاب آخر ، عموما فقد كانت تآليف هذه المرحلة مستجيبة تماما لناموس التطور الذى يخضع له كل شىء فى الوجود ، ومن ثم

---

(١) سورة الحجر : ٩

أدت الغرض منها أعنى الغرض من دراسه البلاغة الدينى والأدبى والنقدى ، وهذه المرحلة هى التى بدأت منذ بدأ التأليف فى البلاغة وانتهت بتقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة المعروفة على يد بدر الدين بن مالك وإتمام السكاكى لها تقسيما وتعريفا وتحديدا فى القسم الثالث من مفتاح العلوم ، وتعرف تآليف تلك المرحلة فى ميدان البحث البلاغى ببلاغة المتقدمين ، ويلقب أصحابها بالبلاغيين المتقدمين .

ثم المرحلة الثانية التى لم تستجب لناموس الحياة فى تطورها ، فلم تكن كتب البلاغة صدى لأدب العصور التى ألفت فيها ، وغدا كل منها صورة من كتاب آخر ، بما ندر أن يظهر مؤلف يحمل جديدا أو يكون عملا غير مكرر ، وتعرف هذه المرحلة لدى دارسى البلاغة ببلاغة المتأخرين وأصحابها يعرفون بالبلاغيين المتأخرين وتبدأ هذه المرحلة ببدر الدين بن مالك صاحب « المصباح » وأبى يعقوب السكاكى صاحب « المفتاح » والخطيب القزوينى صاحب « تلخيص المفتاح » الذى دارت البلاغة فى فلكه ومايزال يطوف المؤلفون فى البلاغة حوله بالشرح والتوضيح حتى هذه اللحظة ، فنى التراث البلاغى لونان متغايران يختلفان فيما بينهما فى موقفهما من قضية التطور .

لون تطور مع الحياه ، وانسجم مع المجتمع ، فقدم الجديد ، وتلا فى التكرير والترديد فحقق هدفه الدينى والأدبى والنقدى ، وهو اللون الذى لازم البلاغة منذ نشأتها بدءاً بأبى عبيدة معمر بن المثنى فى « مجاز القرآن » ومرورا بالجاحظ فى « البيان والتبيين » وأبى هلال العسكرى فى « الصناعتين » وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى فى « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وأبى الحسن على بن عيسى الرمانى فى « النكت فى إعجاز القرآن » وأبى سليمان

الخطابي فى « بيان إعجاز القرآن » ، وأبى بكر الباقلانى فى « إعجاز القرآن » ، وابن سنان الخفاجي فى « سر الفصاحة » ، وعبد القاهر الجرجاني فى « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، « والرسالة الشافيه » ، وجار الله محمود بن عمر الزمخشرى فى الكشاف ، وختاما بضياء الدين بن الأثير فى : « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » .

فؤلفات هذه المرحلة كما يبدو من أسمائها قد تجاوبت مع الحياة ، وتطورت بتطورها واللون الثانى الذى وقف دون التطور ، غير مستجيب فى ذلك لقانون الوجود « فعجز عن تحقيق أهدافه ، ولم يتمكن من التعبير عن روح عصره » ، وحرم من التجديد ، وكان تكريرا وترديدا ، فجردت البلاغة فيه من الأدب حليتها ، واضحت قواعد جافة ، وتعاريف غامضة وملئت بالجدل والاعتراضات ويعد « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى « والايضاح » الذى ألفه ليكون كالشرح له أبرز مؤلفات هذا اللون ، فقد هيمن التلخيص و « الإيضاح » على ميدان البحث البلاغى حتى هذه اللحظة .

وكان عدم استجابة البلاغة لناموس التطور فى هذا الطور الطويل من حياتها ، خروجا على قانون الوجود ، وشذوذا عن سنة الحياة ، مما أطلق صيحة المنادين بالتطور ، ورفع صوت دعاة التجديد ، ودعوة المنادين فى العصر الحديث بتجديد البلاغة ليست شيا بدعا ، ولا أمرا عجبا ، فالتجديد أمر هام وشيء ضرورى لاستمرار الحياة .

وإذا كانت دعوة المجددين فى مطلع عصر النهضة إلى تطوير كثير من العلوم والثقافات بما يتلاءم مع روح العصر ، ويتناسب مع تطلعات أفراده أمر ذا بال ، فإنه يعد بالنسبة لبلاغتنا العربية أكثر ضرورة وأشد أهمية بعد أن تحددت مباحثها وتعينت مسائلها ، ومضى عليها أزمان وأزمان وهى كما هى ، وكتبها الكثيرة يستغنى عن الرجوع إليها بواحد منها ، وقطعت

البلاغة بينها وبين الأدب وسامها ، وبينها وبين النقد ، وغيرهما من العلوم التى تعينها على تحقيق أهدافها .

فلا غرابة إذا أن تعلو أصوات الغيورين من أبناء العروبة تنادى بإعادة الشباب والفتوة إلى علم هو من علوم العربية بمكان ، فالتجديد إذا مطلوب لامر فوض ، ومحمود لا مكروه .

وقد أثبتنا الآن أهمية التجديد وضرورته ، فلننظر بعد فى اتجاهات المجددين ماله قيمة ويعد إسهاما فى صرح البلاغة فنقدره ، وما يكون خلاف هذا فنلفت الأذهان إلى ضآلة أثره ، معقبين على هذه الاتجاهات بذكر رأينا فى تجديد البلاغة على ضوء تجربتنا مع الدرس البلاغى.

اتجاهات التجديد فى البلاغة :

وقد دعا إلى تجديد البلاغة معظم من مارس دراستها وتدريسها من الأساتذة المعاصرين ، بحيث يندر أن نقرأ مؤلفا عصريا فى البلاغة دون أن يكون فيه كلام قليل أو كثير ينادى بتجديد البلاغة وإصلاحها ، بتنقيتها من الألغاز والتعقيدات ، وتخفيفها من الجدل والاعتراضات ، وربطها بالأدب والنقد بوصلها بالمجتمع من خلال شعرائه وخطبائه وكتابه وكل من يتخذ الكلام صنعته. وتبين لنا من تتبع هؤلاء المجددين ، أن اتجاهاتهم تأخذ طابعين :

الطابع الأول :

مؤلفات بذاتها فى التجديد أودعها أصحابها خلاصة آرائهم ، ومن هذه المؤلفات : البلاغة العصرية لسلامة موسى ، ودفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ، وفن القول ، ومناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، والبلاغة وعلم النفس ، والبلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين

الخولى ، والأسلوب لأحمد الشايب ، وغيرها :

الطابع الثانى :

مؤلفات كتبها أصحابها حول بعض موضوعات البلاغة ، وذكروا فيها آراء لهم فى تجديد البلاغة على صفحات محددة ، وهى معظم الكتب المعاصرة فى البلاغة والنقد ! ومنها : النقد المنهجى عند العرب لمحمد مندور والبلاغة تطور وتاريخ لشوقى ضيف والنقد الأدبى الحديث لأحمد كمال زكى والصبغ البديعى فى اللغة العربية لأحمد موسى ! والبيان العربى لبدوى طبانه والصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، والصور البديعية بين النظرية والتطبيق لحفنى شرف ، وغيرها .

وبالنظر فى أسماء هؤلاء المؤلفين السابقين نقف على أن معظمهم مارس تدريس البلاغة بمعنى أن آراءهم فى التجديد جاءت فى معظمها إثر معاناة ونتيجة خبرة ، وحصيا لمصاعب قد اعترتهم ؛ وعواقب صادفتهم مما يجعل آراءهم حول تجديد البلاغة جديرة بالنظر ، فما الذى دعا إليه أولئك المجددون ؟

الإمام الشيخ « محمد عبده » :

ويعد الإمام الشيخ « محمد عبده » أول من رفع لواء تجديد البلاغة فى العصر الحديث ، ولا غرو فقد كانت ثورته على الجمود لا حد لها ، ودعوته المصريين خاصة والعرب عامة إلى نبذ الكسل والخمول وتحريك أفكارهم وعقولهم ، للإفاده من المدنية الأوربية الحديثة ، وكانت دعوته إلى تجديد البلاغة وتطورها جزءا من دعوته بتعديل مناهج التعليم فى الجامع الأزهر الشريف ، وإدخال العلوم العصرية ضمن هذه المناهج لتساعد فى تغيير واقع العرب والمصريين . وفى الوقت الذى ينادى فيه الإمام الشيخ بإدخال

العلوم العصرية ضمن مناهج التعليم فى الأزهر يجىء تجديده للبلاغة آية فى العجب، ومثلا فى الاستغراب إذ يلفت الأذهان إلى كتابى «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» للشيخ عبد القاهر الجرجانى، واستمداد الدرس البلاغى منهما وما يلبث العجب أن يزول، والاستغراب أن يدبر بعد أن طبع الكتابان وأقبل الطلاب ينهلون منهما البلاغة المصفاة من شوائب العجمة، الخالية من التتوءات والتعقيدات وليجدوا فيها خير معين لهم على فهم أسرار كتاب الله؛ وتذوق جمال النصوص واستشعار محاسنها، فوجد طلاب البلاغة فى هذين الكتابين بلاغة قديمة جديدة، بلاغة فطرية منذ هذه اللحظات زاد تعلق الدارسين بهذين الأثرين الغاليين اللذين أشاد فيهما كل من درس البلاغة ودرسها والفضل الأكبر فى بعثهما، وفيما كان من الافادة الكبيرة للدارسين ومنهما يرجع لمجدد العصر الأول الإمام الشيخ «محمد عبده» الذى عد تجديده فى البلاغه التجديد الأصيل الذى ينبغى أن تكون عليه البلاغه فى كل أزمانها لتكون دائما جديدة.

الاتجاه النفسى:

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن تطوير البلاغة وتجديدها يكون بالتخفيف من ثقل القواعد والتقليل من الخلافات بين أصحاب الآراء، ووصلها بالحياة والمجتمع، والاستعانة فى دراستها بعلوم النفس والأخلاق والجمال، حيث يعينها ذلك على تأدية رسالتها، ويمكنها من بلوغ هدفها، ومن أنصار هذا الاتجاه: أحمد أمين، والعقاد، والرافعى، وطه حسين، وأمين الخولى، ومحمد خلف الله ومن نهج نهجهم.

---

(١) عبد القاهر الجرجانى د/ أحمد أحمد بدوى ص ٣٩٠ سلسلة أعلام العرب وأثر القرآن فى تطور النقد العربى حتى القرن الخامس الهجرى د/ محمد زغلول سلام ص: ٢١

أمين الخولى :

فيرى أمين الخولى أن الاستعانة فى دراسة البلاغة بعلوم النفس يمكنها من تحقيق أهدافها وفى مقدمتها الوقوف على أسرار الإعجاز القرآنى ، ومن مظاهر هذه الاستعانة أن تقدم بين يدى الدرس البلاغى مقدمة نفسية يعرف الدارس فيها شيئا عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفنى ؛ ويعرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة والإحساس ، وعن الذوق ، كما يعرف "كثير عن أمهات الخوالج الإنسانية ، من حب وبغض ، وحزن وفرح ، وغيرة وانتقام ، وما إلى ذلك مما هو مادة المعانى الأدبية الكبرى فى الآداب الإنسانية كلها[1] .

ويمضى أمين الخولى فى إشادته بهذا المنهج فى دراسة البلاغة وأثره بالنسبة لفهم البلاغة القرآنية ، وأن ما أدرك منها على ضوئه فهو الدقيق المنضبط ، وما جاوزه فهو الادعاء والتمحل[2] .

والرافعى كذلك من أنصار ذلك المنهج فى الدراسات البلاغية والنقدية ، فيرى أن عدم استخدام البلاغيين له كان من أسباب جمودها ويلتمس العذر لهم فى عدم استخدامهم له لظروف عصرهم ، كما أن الاتجاه النفسى واضح فى كل دراسات الرافعى الأدبية وفى معظم أبحاثه النقدية ، وهو أحد الأصول التى يقوم عليها منهجه فى النقد ، ومن وجوه إعجاز القرآن عند الرافعى ما يعرف بالإعجاز النفسى ، لذا نراه ينادى باستخدام المنهج النفسى فى دراسة البلاغة لتتمكن من بلوغ أهدافها فى : إدراك أسرار الإعجاز والوقوف على محاسن الصور الأدبية ، والإحساس بروعتها وجمالها[3] .

(١) البلاغة وعلم النفس لأمين الخولى ص : ١٤٦ — ١٤٨

(٢) مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولى ص : ١٩٩ — ٢٠٣

(٣) إعجاز القرآن : للرافعى ص : ٢٩١ ط التجارية .

محمد خلف الله :

كما يقتنع بهذا الاتجاه « محمد خلف الله » ويرى أنه الذى ينقذ البلاغة من جمودها ، ويعود بها إلى وظيفة النقد الجوهرية ، من حسن فهم للنص الأدبي، وخضوع لنواحي تأثيره و مشاركة لمنشئه في تجربته، وإدراك لما بين الأدب والحياة من صلات[1] .

الاتجاه النفسى ليس جديدا على البلاغة:

وبالتدقيق يتبين لنا أن الاتجاه النفسى فى دراسة البلاغة غير جديد عليها، فصلة البلاغة بالنفس قديمة ، ومؤلفات البلاغيين حافلة بما يؤكد هذه العلاقة التى تتمثل فى المقاييس العامة التى يضعها المؤلفون فى مقدمات كتبهم ، وتلك التى تبدو من خلال توضيح الأسرار البلاغية لكثير من الشواهد ، ويشهد بهذا أصحاب ذلك الاتجاه أنفسهم فأمين الخولى يذكر فى فن القول : أن البلاغيين القدامى حاولوا على قدر طاقتهم الربط بين البلاغة وعلم النفس[2]

ومحمد خلف الله يرى أن طريقة التذوق والتأمل الباطنى والاهتمام بالنفس بمراعاتها فى مختلف أحوالها بلغت القمة لدى « عبد القاهر » فى أسرار البلاغة، فالمؤلف لا يفتأ يدعوك بين لحظة وأخرى إلى تجربة الطريقة النفسية التى يسميها المحدثون « الفحص الباطنى » وهى أن تقرأ الشعر وتراقب نفسك أثناء قراءته وعقب القراءة ، وتتأمل مايعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان وتبحث عن مصادر هذا الإحساس ، وبواعث ذلك التأثير « إذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت ، فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت ، وعندماذا ظهرت »[3]

(١) من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ـ محمد خلف الله ـ المقدمة

(٢) فن القول : أمين الخولى ص : ٢٠٥ ط الحلبى

(٣) من الوجهة النفسية ص : ٩٢ — ٩٤

حول الاتجاه النفسى :

ولا أختلف مع أصحاب الاتجاه النفسى حول أثره فى تجديد البلاغة وتطويرها وربطها بالحياة والمجتمع ، لكن على أن تتم الاستعانة بالمنهج النفسى بالقـــدر الذى يحفظ للبلاغة كيانها ، ولا يفقدها روحها ولبابها ، ولا يزج بها فى أحضان علوم النفس والجمال .

كما أوافق المرحوم / أمين الخولى على ضرورة تنقية البلاغة من الأبحاث الأصولية والمنطقية التى عكرت صفوها كبحث الدلالات فى مطلع علم البيـان ، وإفساح العلاقة بين الأدب وعلم النفس ، إذ أن الأدب نوع من الفن والنفس مصدر كل الفنون ، وفى الوقت نفسه فأرى أن تتم تلك العلاقة بما لا يكون فيه جور على كيان البلاغة ، ومايضمن لها تميزها ويحفظ لها استقلالها وكان ذلك موقف بعض النقاد المعاصرين من هذا الاتجاه « فمحمد مندور » يرى أن تطعيم درس الأدب بعلم النفس ينبغى أن يكون من خلال درس الأدب ومافيه من ظواهر نفسية ، وأن يكون كالضوء الداخلى الذى يشع من نفس الناقد ، فيعينه على استخلاص أصالة الأديب الخاصة ،ولكن فى غير إقحام لهذه المعرفة على الأدب ونقده ، لأن الأدب منبع لكل تلك المعارف[١] .

وهو مايراه « سيد قطب » من أن الإسراف فى استخدام المنهج النفسى فى الدراسات الأدبية والبلاغية يحول البلاغة والأدب إلى دروس فى علم النفس[٢] .

---

(١) النقد والنقاد المعاصرون د / محمد مندور ص ١٠٤ مكتبة نهضة مصر .
(٢) النقد الأدبى : أصوله ومناهجه : سيد قطب ص ٢٠٨ والمذاهب النقدية د / ماهر حسن فهمى ص ١٧٤ مكتبة نهضة مصر .

ولما كان الحكم على أى اتجاه يقدر بمدى ما أحرزه من نجاح وحققه من فوائد فإن الاتجاه النفسى إن أفاد فى كسر عزلة البلاغة ، ووصلها بالحياة والمجتمع ، وربطها بالعلوم والفنون فإنه لا يغنى بحال ما عن ضرورة دراسة البلاغة على هدى ما دعا إليه الإمام « محمد عبده » أى من تبعها أثر « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجانى .

كما أن المغالاة فى تقدير الاتجاه النفسى فى دراسة البلاغة لا يجعلها تحقق أهدافها الدينية والأدبية والنقدية ، ومن أوضح المثـــل على هذا دروس البلاغة التى تقدم الآن لطلاب اللغة العربية فى كثير من كليات الآداب والتربية على منهج المرحوم « أمين الخولى » فإنها فى عمومها لا تحقق أهداف البلاغة ، وإن أفادت الطلاب فى معرفة أنواع الأساليب ، ومذاهب النقد ، وعناصر الشعر وغير ذلك فليس لها من فائدة محققة فى كيفية الموازنة بين الأساليب ، وتمييز الجيد من الردىء ، وإدراك الأسرار البلاغية لكلام الله وهى أهم ما كانت من أجله الدراسات البلاغية .

الاتجاه البيانى :

ومن اتجاهات التجديد فى البلاغة العربية ما يعرف بالاتجاه البيانى ، ويعد امتدادا للاتجاه النفسى وأثرا من آثاره ، فصاحبته « بنت الشاطىء » تذكر فى تقديمها له أنها تقتفى فيه أثر أستاذها وزوجها « أمين الخولى » ، لذا نراه يقوم على الأسس التالية :

١ ـ التناول الموضوعى لما يراد فهمه من كتاب الإسلام ، وذلك بجمع كل ما فى الكتاب الحكيم من سور وآيات فى الموضوع المدروس .

٢ ـ معرفة أسباب النزول ، وأماكن نزول الآيات والوقت الذى نزلت فيه حيث يعين ذلك على تفهم ما حول النص .

البحث فى دلالات الألفاظ ، والوقوف على استعمالات اللفظ الحقيقية والمجازية فى اللغة العربية ، واستقراء كل المواطن التى استعمل فيها القرآن الكريم .

٤ — الاحتكام إلى سياق النصوص ، لمعرفة رأى القرآن نفسه والاهتداء به فى توضيح مبهم ، أو تخصيص عام ، حيث يفسر القرآن بعضه بعضا(١)

فتلك هى الأسس التى يعتمد عليها المنهج البيانى ، الذى تقتنع به صاحبته « بنت الشاطىء » فى تفهم أسرار الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ، مقتفية فيه أثر أستاذها المرحوم « أمين الخولى » فى كتابه : « مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ؟

فهل حقق الاتجاه البيانى هدفه ؟

من يقرأ التفسير البيانى يجد الأسس السابقة واضحة فيه ، التناول الموضوعى وظروف الآيات وملابساتها ، والتفسير اللغوى للكلمات ووجوه إعرابها ، وتفسير القرآن بالقرآن ، لكنه لا يجد شيئا واحدا ، هاما وضروريا ، وهو البيان الذى من أجله استخدم ذلك المنهج ، فالبيان فى التفسير البيانى غير بين ، لأن الإسراف فى تناول الأمور السابقة والاهتمام بها ولا سيما اللغة جعلها هدفا ، وغرضا فى حد ذاتها ، فأدى ذلك إلى الجور والحيف على الغرض الرئيسى والهدف الأساسى الذى من أجله كان ذلك المنهج وهو : البيان الذى غاب واختفى وسط الحشد الهائل من آراء المفسرين واللغويين.

لقد جاء التفسير البيانى تفسيرا لغويا لألفاظ القرآن الكريم على غرار

---

(١) مقدمة التفسير البيانى للقرآن الكريم د . عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف .

بعض التفاسير التى أغرق أصحابها فى الاهتمام باللغة خرجت من دائرة التفسير إلى دائرة الأبحاث اللغوية .

ومن الأمور البدهية أن اللغة للكاتب البلاغى والبيانى وسيلة لا غاية فهو يستعين بها على قدر ما ينتهى به إلى الغرض المقصود والمعنى المطلوب أما المضى وراءها إلى نهاية الشوط فأمر لا تحمد عقباه ، وقد كان تفسير المنار حركة تجديد شاملة للعقائد والأخلاق والنظم والأحكام ، ولم يهمل الإمام فى تفسيره البحوث اللغوية ، لكنه عرض لها فى حدود الاعتدال ، حينما تكون ضرورية لفهم الآية ، أما مهمته الأساسية فكانت شرح معنى الآية وبيان ما تتضمنه من معان وأفكار ومبادىء ، ثم ما تعنيه هذه الأفكار والمبادىء للحياة الإنسانية فى العصر الحاضر[1]

فالبيان مفقود فى « التفسير البيانى » وكثير مما ورد فيه لم يكن تجلية للبيان القرآنى بقدر ما كان تعبيرا عن الأمور الأربعة السابقة وإظهارا لها . وكل البلاغيين المتقدمين والمتأخرين كانوا على قدم راسخة من التمكن فى اللغة والإحاطة بوجوه استعمالاتها ،ومع هذا فقد كان استخدامهم لها بالقدر الذى يخدم الفكرة البلاغية ، ولم يكن البحث اللغوى ذاته أو نقل مفردات اللغة من متونها هدفا بعينه ، كما رأينا ذلك فى التفسير البيانى ، بل كان من البلاغيين من حذر من الغلو فى الاهتمام بالجانب اللغوى فى الدرس البلاغى لتأثيراته الضارة على الفصاحة والبلاغة ، فيقول يحى بن حمزة العلوى فى مقدمة طرازه : « ولهذا فإنه من كان من المفسرين نظره فى تفسير كلام الله مقصورا على معرفة المعانى الإعرابية ، وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لا غير من غير بيان ما تضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة وتقرير مواقعهما الخاصة ، فإنه يعد مقصرا فى تفسيره لكونه قد أخل بمعظم علومه وأهملها

---

(١) القرآن وتجديد المجتمع د . ابراهيم اللبان ص ٣٤ — ٣٩

وأعرض عن أجل مقاصده وتركها ، وهو معرفة الإعجاز لأنه موقوف على ما ذكرناه من معرفة الفصاحة والبلاغة جميعا ، ومن أعتمد فى تفسير كلام الله على ملاحظة جانب الفصاحة والبلاغة ، ونزل المعانى القرآنية عليها ، سلم عن أكثر التأويلات النادرة ، وبعد عن حمله على المعانى الركيكة التى وقع فيها كثير من المفسرين كما هو مذكور فى كتبهم »[1] .

الاتجاه الأدبى :

ومن اتجاهات التجديد فى البلاغة ما يعرف بالاتجاه الأدبى ، والاتجاه الأدبى فى تدريس البلاغة ليس جديدا عليها ، أو وافدا إليها ، فقد عاشت البلاغة أزهى عصور هامع الأدب ، وكانت له سنادا ، وشاركته فى تألقه وسموه ومعظم الداعين إلى تجديد البلاغة بتوثيق صلتها بالأدب قد أغفلوا هذا الماضى العريق الحافل بالخصب والثراء لبلاغتنا العربية ، وحكموا عليها بالجمود والجفاف من خلال مرحلتها المتأخرة التى صيغت البلاغة فيها فى قواعد وصبت فى قوانين ، وسنرى أن ما ينادى به أصحاب هذا الاتجاه من توسيع دائرة البلاغة والقضاء على عزلتها وربطها بالأدب متمثل على أحسن الوجوه فى الطور المتقدم لبلاغاتنا العربية .

ومن أعلام هذا الاتجاه :

أحمد حسن الزيات :

فى كتابه القيم الذى يعد صيحة صادقة جديرة بالتقدير فى تجديد البلاغة أبرز فيه مؤلفه أهمية البلاغة وفائدة دراسة المثقفين لها ، ومدى قيمتها بالنسبة للحياة ، وذلك بأسلوب يلائم روح العصر ويجعل الكتاب جديرا أن يكون مدخلا لدراسة البلاغة ، كما مزج صاحبه بين تراث البلاغة

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز — يحيى العلوى ١ / ١٩

الأصيل ودروس النقد العربية بما كشف عن استيعاب التراث البلاغى لكل جديد .

وبهذا حقق « دفاع عن البلاغة » لها امتزاجا بالمجتمع ، وأبان أهميتها وعدم الاستغناء عنها لكل من يمارس صنعة الكتابة من الشعراء والكتاب والخطباء والمدرسين والقضاة والصحفيين وغيرهم ، هذا إلى ما فيه من تنويه بأهمية اللغة والطبيعة والنفس كآلات يستعين بها دارس البلاغة ، وما فيه من حديث عن الذوق والأسلوب ، وغير ذلك مما يجعل الكتاب يتفق مضمونه مع عنوانه ، وينطبق اسمه على مسماه .

أحمد الشايب :

والمرحوم الأستاذ : أحمد الشايب من أبرز أنصار الاتجاه الأدبى فى دراسة البلاغة ، فينادى بتنقية البلاغة من أنواء الفلسفة وطابع الجدل وأن يتجه بها إلى دراسة الأساليب وخصائصها ، وربطها بالأدب وغيره من العلوم ، وذلك باسناد الدرس البلاغى إلى الأدباء الذين يخلصونه من أساليب الفلاسفة وألغازهم(١)

وإن وافقت الدكتور / بدوى طبانه على ما يذكره فى هذا الصدد من ثراء المناهج البلاغية التى سبقت عصر « السكاكى » ، وما تلاه بالزاد الأدبى الذى يدعو إليه المرحوم « الشايب » حيث نمت بلاغتنا العربية فى رياض الأدب ، بل فى أسمى رياضه وهو القرآن الكريم ، فإنى لا أتفق معه فيما يقرره من أن كتاب المرحوم « أحمد الشايب » كان أول محاولة إيجابية فى سبيل بعث البلاغة العربية ، والبحث عن مجالاتها ، وما يمكن أن تتسع له ، وما لا ينبغى أن تجاوزه :(٢)

---

(١) الأسلوب : أحمد الشايب ص : ٣٩ ط رابعة

(٢) البيان العربى : د . بدوى طبانة : ٤٠٨ — ٤١٠

فمعظم ما جاء فى « الأسلوب » تتمثل أصوله فى تراثنا البلاغى القديم ، وكذلك كثير مما ينادى به على أنه نظريات حديثة فى النقد ، يمكن بالتدقيق والتروى إرجاعه إلى أسس ثابتة ، موجودة فى مكانها من تراث البلاغة الشامخ .

ولئن كان لتلك الصيحات من نتائج نافعة تتمثل فى توجيه الطلاب إلى آفاق واسعة فى مجالات الأدب ونقده ، فإنها لن تكون مغنية بحال من الأحوال عن دراسة البلاغة على النهج الفنى المتوارث الذى يربى ملكة النقد والتذوق ، ويمكن الطلاب من فقه أسرار الإعجاز البلاغى فى كتاب الله الكريم .

فالمضى فى تدريس البلاغة على الطريقة الفنية المعهودة من خلال النصوص الأدبية الحديثة بمنهج « عبد القاهر » و « الرمانى » و « ابن سنان الخفاجى » و « ضياء الدين بن الأثير » لا معدى عنه لتكوين حاسة التذوق والنقد وقد تغنى دراسة البلاغة على هذا النهج عن الوقوف على أهم ما يدعو إليه الاتجاه الأدبى وهو الإلمام بأنواع الأساليب وخصائصها ، لكن فقه الأسرار الجمالية ، والوقوف على ما يزين الأساليب وما يقلل من حسنها لا يتأتى لمن كان حظه من دراسة البلاغة معرفة أحوال الأساليب وما يتصل بها فقط ، ويؤكد ذا دروس البلاغة الآن التى تقدم على النهج السالف فى بعض أقسام اللغة العربية بجامعاتنا ، وقد لمست ذلك عمليا فى الدرس البلاغى الذى قمت بإلقائه هذا العام على طلاب القسم التأهيلى لجامعة الأزهر[1] وكلهم من الحاصلين على الثانوية العامة ودرسوا البلاغة على ضوء الاتجاه الأدبى ، فكنت أتبين أن الدروس البلاغية التى تناولتها معهم بالطريقة

---

(١) فى العام ٧٧ / ٧٨ الجامعى .

الفنية المنقاة من شوائب الجدل المبنية على التذوق . والنفاذ إلى بواطن النصوص لاستجلاء أسرارها واستكناه محاسنها غريبة بالنسبة لهم كل الغرابة ومفيدة غاية الإفادة .

على الجارم ومصطفى أمين .

ويعد كتاب : « البلاغة الواضحة » للمرحومين : «على الجارم ومصطفى أمين لونا من الألوان الاتجاه الأدبى فى تدريس البلاغة ، فقد جمعا فيه بين النصوص الأدبية الجيدة المتنوعة ، والقاعدة الموجزة الواضحة على منهج البلاغيين المتأخرين فى تقسيم البلاغة إلى : معان وبيان وبديع مع التنويه بأنواع الأساليب وخصائصها ، ويتمثل المنحى الأدبى فى : «البلاغة الواضحة» فى غمره بالنصوص الكثيرة المتنوعة ، التى استنبطت منها القاعدة واضحة موجزة .

ففى الكتاب أثر الروح الأدبية ، وتخفيف من أثقال القاعدة ، ولكن الجور على المفاهيم البلاغية ، وأسرار التراكيب فيه واضح ، فقد اختفت كثير من الأسرار البلاغية وسط النصوص المتنوعة التى اهتم المؤلفان بتحليلها تحليلا أدبيا يوضح معناها ، ومع كثرة النصوص وتنوعها فى الكتاب فلا تعد بلاغة الكتاب فى نظرنا فى خدمة النص الأدبى ، إذ أن معظمها مما قيل فى العصور السابقة لتأليف الكتاب ، ولاسيما العصر العباسى وما قيل منها فى العصر الحديث لا يمثل إلا نسبة محدودة ، وكان ينبغى أن يحدث العكس .

ذلك إلى أن الهدف الرئيسى المنشود من دراسة البلاغة غير واضح فى الكتاب وهو . الوقوف على أسرار الإعجاز القرآنى ، لكن يشفع لمؤلفى الكتاب أنهما كتباه لمرحلة معينة من التعليم وهى المرحلة الثانويه .

حفنى شرف

والمرحوم « حفنى شرف » من أساتذة البلاغة ، الذين ألفوا فيها ، ودعوا إلى تجديدها وتطويرها ، وقد جعلناه ضمن أفراد الاتجاه الأدبى من خلال ما اقترحه لتجديد البلاغة ، وإن كانت مؤلفاته لاتمثل فيها اقتراحاته .

فهو يدعو إلى توثيق صلة البلاغة بالأدب لأن الأدب صورة الحياة يتطور بتطورها فلا أقل للبلاغة وهى سناده أن يشملها التطور هى الأخرى حتى لانشعر ببعد الشقة بينها وبينه ، ويدعو كذلك إلى الإفادة فى دراسة البلاغة بعلم الجمال ، وأبحاث الذوق الفنى ، وعلم النفس الأدبى : ويرى أن للتجديد غرضين : غرضا قريبا يتمثل فى تسهيل دراسة المواد الأدبية ويحققه المنهج الصالح والكتاب المنظم ، والمعلم الكفء ، وغرضا بعيدا يتمثل فى جعل البلاغة ماده من مواد النهوض الاجتماعى تتصل بمشاعر الأمة وترضى كرامتها الشخصية . [1]

ويرى أن سبيل ذلك تنقية البلاغة من الجدل والاعتراضات، والإقلال من القواعد مع الإكثار من الشواهد، والبعد عن طريقة التلخيص وشروحه وخلط مسائل البلاغة بالفلسفة ، وأن تطبق مقاييس البلاغة على النصوص الأدبية ، فى ثوب عصرى مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال [2]

وقد ورد كلام المرحوم « حفنى شرف » عن تجديد البلاغة فى ختام كتابه : الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، فكان مرتقبا أن يكون الكتاب معبرا عن اتجاهه السابق فى تطوير البلاغة وتجديدها ، لكنا نرى الكتاب

(١) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق د / حفنى شرف ص : ٤٧٠ ، ٤٧١

(٢) المرجع السابق

غير معبر عن ذلك ، إذ أنه عرض تاريخى لمسائل البيان وموقف علماء البلاغة منها وطريقة تناولهم لها ، وكذلك كتابه الثانى عن البديع ، الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، فليس فى الكتابين على كبر حجمهما ، وغزارة مادتهما ، وتنوع موضوعاتهما مايعد تطبيقا لرأى صاحبهما فى فى تجديد البلاغة بل إن ماجاء فيهما يعد فى نظرنا دراسة تاريخية لفنون البيان والبديع وتطور أبحاثهما على مدى تاريخ البلاغة ، وإذا كان المنحى التاريخى مفيداً لا يستغنى عنه فى دراسة أى علم ، فلا يكتفى به فى مجال تلمس تحقيق الإفادة من الدرس البلاغى .

محمد رجب البيومى

وهو من أساتذة البلاغة والنقد النابهين الذين يمثلون ثورة على بلاغة المتأخرين ويعدونها حجر عثرة فى سبيل النمو الأدبى ، ويدعو إلى تحريرها من القيود التى وضعوها فطمست البيان القرآنى وحجبته عن الأنظار ، ودعوته لتجديد البلاغة تتمثل فى دراسة البلاغة على هدى من علم النفس ومن خلال الأدب ، وبمنهج البلاغيين المتقدمين الذين حققت جهودهم للبلاغه أهدافها . (١)

واتفق مع الدكتور / محمد رجب البيومى فيما يعده على البلاغيين المتأخرين، فيما يراه ضروريا لإصلاح البلاغة بتنقيتها من ألغازهم وعثراتهم وفى ثنائه على المتقدمين من البلاغيين واتخاذ منهجهم سبيلا لدراسة البلاغة وإدراك الإعجاز القرآنى .

وإن كنت لا أسلم له بفتح الباب على مصراعيه للدراسات الأدبية والنفسية فى دراسة البلاغة القرآنية ، لما يترتب على ذلك من غياب الأسرار البلاغية ، وخفائها عن الأنظار وهى سر الاعجاز وروحه .

(١) البيان القرآنى د/ محمد رجب البيومى ص :٨١،٨٢ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

الاتجاه التربوى

ولعلماء التربية الذين يزاولون النظر فى مناهج التعليم من حين لآخر لتعديلها وتطويرها بما يجعلها متناسبة مع قدرات الطلاب على اختلاف مراحلهم الدراسية وتفاوت أعمارهم اتجاه فى إصلاح الدرس البلاغى وتجديده بما يحقق الغرض منه .

ومن هؤلاء المربين المرحوم « عبد العليم إبراهيم » الذى أمضى شطراً كبيرا من حياته فى خدمة اللغة العربية مدرسا لها فى جميع مراحل التعليم وموجها ومؤلفا ، وقد أودع ثمرة تلك التجارب وخلاصتها كتابه القيم والمفيد لكل من يمارس تدريس اللغة العربية وهو :
« الموجه الفنى »

فيرى صاحب الموجه الفنى أن تدريس البلاغة على الطريقة القديمة لا يحقق الغرض منها ، ولا يتفق مع نظريات التربية ، حيث تبدأ دراسة البلاغة بعلم المعانى وهو أصعب العلوم الثلاثة ، واللائق تربويا أن يكون الانتقال من السهل إلى الصعب وليس العكس .

كما أن تدريس البلاغة بهذه الطريقة القديمة التى يعنى فيها بالبحوث النظرية والفلسفات العميقة من التعاريف والتقاسيم والضوابط فى الدراسة والامتحانات واتخاذ الأمثلة من الجمل المقتضبة المبتورة والعبارات المتكلفة المصنوعة قضى عليها بالعزلة عن الأدب والوقوف دون تحقيق الغاية من دارستها ، وهو تكوين الذوق الأدبى للطلاب ، وإغراؤهم بتتبع الآثار الأدبيه وتبين جمالها وكشف أسرار هذا الجمال فشعر الطلاب أن درس البلاغة شىء يبدو فيه التكلف فوقفوا منه موقف الحيرة والشك فى قيمته الأدابيه[1]

فلا يؤدى الدرس البلاغى الغايه المرجوة منه إلا إذا قدم على مايراه صاحب « الموجه الفنى » بالطريقه الحديثه ، التى تجعل البلاغة وحدة متكاملة

(١) الموجه الفنى : عبد العليم ابراهيم ص : ٣٠٠ .

ليس بينها فواصل ، وتقضى على الدولة التى بينها وبين الأدب بجعلها جزءاً من الدراسات الأدبية وتخفف من سيطرة القواعد وكثرة التعاريف والتقاسيم وتعالج الموضوعات البلاغية من الناحية النفسية والوجدانية ، بالتحدث عن الجو النفسى للفكرة أو النص ، وعن عاطفة الأديب ، واستجابة القارىء ونحو ذلك [1] .

وأتفق مع صاحب « الموجه الفنى » على مايراه من ضرورة مزج البلاغة بالأدب والاقلال من كثرة التقاسيم والتعاريف وغيرها من الأمور التى جمدت البلاغة وجعلتها بمعزل عن الأدب ، مع مراعاة أن يتم المزج بينهما كما بينا من قبل بالقدر الذى يحمل للبلاغة استقلالها ، ويحفظ لها تميزها ، وذلك بالاسهاب فى تقديم النصوص الجيدة المتنوعه .وتطبيق مقاييس البلاغه عليها ، لتبين وجوه حسنها والوقوف على مايشينها ، فهذا ما أراه سديداً فى مجال الحديث عن أى تجديد يكون للبلاغة فى هذا الاتجاه ، وما عداه فإنه يكون مسخاً للبلاغه ، وإذا بنا لها فى حمار الأدب وفنونه ، على نحو ما هو كائن الآن ، فقد أضحت دروس البلاغه التى يعنى فيها بتبين أسرار التراكيب غريبه تماما لمعظم طلاب المرحله الثانوية فى مدارس وزارة التربيـــة والتعليم الذين يدرسون البلاغه على المنهج السالف،مما جعل كثيرا من المربين والناقدين يوصون بالعودة مرة ثانيه إلى منهج البلاغة القديم .

ومايلقبه صاحب « الموجه الفنى » بالطريقة القديمة لايراد به كل تراثنا البلاغى القديم وإنما ينطبق هذا على منهج البلاغيين المتأخرين الذين داروا فى فلك واحد بعد أن تم تقعيد البلاغة . لكن بلاغة المتقدمين لايستطيع أحد أن ينكر عظيم قدرها ، وأن الدرس البلاغى المثمر هو الذى يقدم على نهجها وبأسلوبها .

---

(١) المرجع السابق : ٣٠١ .

رأينا فى تجديد البلاغة :

نلاحظ أن معظم الاتجاهات السابقة تتفق فى دعوتها إلى تجديد البلاغة على تنقيتها من كل ما يحول دون انطلاقها ويطبعها بالعقم ويسمها بالجمود ، والقضاء على عزلتها بالمزج بينها وبين فنون الأدب وغيره من العلوم ، وقد عرفنا أن كثيراً من هذه الاتجاهات قد صدرت من الحكم على المرحلة المتأخرة من بلاغتنا العربية وهى التى وقفت فيها البلاغة عن الحركة والتطور بعد أن تم تحويلها إلى علم ذى قواعد وقوانين على يد السكاكى ومن جاء بعده ، ولئن كان لهذه الاتجاهات من تحقيق شىء من الفائدة للدرس البلاغى فإن لها من المخاطر ما يجعلنا نتلقاها بحذر ونأخذ منها بقدر ، ولا نقف منها موقف القبول والتسليم ، وأى خطر بعد تمييع البلاغة ؟ وهل هناك من ضرر يفوق تضييعها والقضاء عليها بإذابتها فى علوم الأدب والنفس والجمال ؟

ومن واقع تجربتى الخاصة مع الدرس البلاغى أعرض بعض النقاط التى أقتنع بقيمتها ومدى أهميتها لتوفير النجاح للدرس البلاغى ، وتعد فى نظرى التجديد الحقيقى الذى ينبغى أن يؤخذ به فى درس البلاغة ، وتتمثل هذه النقاط فى :

١ — بعث التراث البلاغى القديم ، واستمداد المادة العلمية والأدبية للدرس البلاغى من هذا التراث ، وفى ذلك إنعاش الدرس البلاغى وإثراؤه وهو التجديد الأول الذى بدأه رائد المجددين فى العصر الحديث الإمام الشيخ « محمد عبده » حين لفت الأنظار ونبه الأذهان إلى ما فى : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى من بغية لمن ينشد دراسة البلاغة .

فمؤلفات البلاغيين المتقدمين زاخرة بكل مايراه دعاة التجديد من توسيع نطاق البحث البلاغى ، والقضاء على عزلته عن الأدب وغيره من العلوم . وليس ثمت من تجديد للبلاغة يفوق التجديد عن طريق بعث التراث البلاغى القديم ، ودراسة البلاغة بروح الجاحظ ومنهج « عبد القاهر وأبى هلال

العسكرى وابن الأثير والعلوى ، مع الاجتهاد فى جعل هذه المقاييس البلاغية المتقدمة فى خدمة النصوص الأدبية الحديثة ، كى لا تعزل البلاغة عن الأدب ، وتكون فى خدمة المجتمع ، ولا ينظر إليها على أنها علم من العلوم القديمة .

٢ — الاستعانة بالعلوم الأخرى التى لها تعلق بالنص فى توضيح أسراره البيانية ، وهى الاستعانة التى تفيد فى تذليل المفاهيم البلاغية وليست الاستعانة التى ينسى فيها دارس البلاغة مهمته وينساق وراء أمور أخرى تنتهى به آخر الأمر إلى تضييع البلاغة والقضاء عليها ، وهذا ما أراه سديدا ومفيدا فى موضوع ربط البلاغة بالعلوم الأخرى ، أما فتح الباب على مصراعيه ، وحشو البلاغة بدروس علوم النفس والأخلاق والجمال وغيرها فذلك له خطورته فى طمس معالم البلاغة وإلغاء ذاتيتها واستقلالها ، فلا أنكر أثر الاستعانة بكل ألوان الثقافة فى تجلية الأسرار البلاغية للنصوص ، بل أرى أنه التجديد الحق للدرس البلاغى ، لكن ما أنكره هو أن تموت البلاغة وتفقد روحها المتميزة وكيانها المستقل لعدم الوعى السليم فى الانتفاع بتلك العلوم ،

٣ — تطوير مقدمة البلاغة ، وتوسيع جوانبها بما يبين عن مفهوم البلاغة ويظهر عظيم قيمتها ويكشف عن منزلتها من العلوم الأخرى ووجه ارتباطها بهذه العلوم وأهمية دراستها بالنسبة للمجتمع ، وتقديم ذلك كله بأسلوب يناسب روح العصر ويلائم أذواق أفراده .

٤ — التجديد فى طريقة عرض المفاهيم البلاغية ، بعرضها عرضاً جذاباً مشوقاً يجعلها قريبة من الأذهان ، سهلة التناول ، دانية القطوف وقد جرب المتقدمون من البلاغيين ذلك ، فاستعانوا بكثير من السبل ، لتذليل ما يشرحون من مسائل ، وما يوضحون من نظريات وذلك فى عمومه

يعنى بتجديد الطريقة التى يقدم بها الدرس البلاغى بما ينفى عنه وصف القدم، ويجعله درسا هاما يستعان به على فهم جوانب الحياة، ويساهم فى بناء المجتمع ومما ينبغى الأخذ به فى ميدان تطوير الطريقة التى يتناول بها الدرس البلاغى :

(أ) الاستعانة بصور الحياة المادية، ومظاهرها الحسية التى تقع فى متناول الأنظار لتوضيح الأمور المعنوية التى يداخلها خفاء، وقد جرب «عبد القاهر» وغيره من البلاغيين ذلك السبيل . فاستخدموا كثيرا من صور الحياة فى وقتهم لتوضيح مايقومون بشرحه من نظريات، كالصوغ والنقش، والتزيين والبناء والرسم والنحت والتصوير وغيرها، واقرأ فى ذلك نموذجا من تمجيد عبد القاهر للنظم الذى يعد مناط الحسن ومحل الإعجاز، وليس لأى من اللفظ أو المعنى على انفراده «ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشىء الذى يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر فى صوغ الخاتم وفى جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذى وقع فيه العمل وتلك الصنعة كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه، وكما أنا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا الخاتم أجود أو فصه أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه ألا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه»[1] .

فقد وضح «عبد القاهر» كلامه السابق عن عدم إرجاع المزية إلى المعنى وحده مقطوعا عن اللفظ بالحلى المصنوعة من الذهب والفضة،

---

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ص : ١٧٥ ، ١٩٧٦

ولا ينكر قيمة ذلك التصوير فى توضيح ما يشرحه من فكر ، وهكذا ينبغى أن يستعين أستاذ البلاغة فى كل الأوقات بالصور الحسية التى تقع تحت بصر طلابه على تذليل ما يفسره من قضايا .

(ب) الطريقة الموضوعية فى تدريس البلاغة :

ومما رأيته معينا على نجاح الدرس البلاغى ، وبلوغه الغاية المرجوة منه من ناحية تطوير وتجديد الطريقة التى يقدم بها ، محاولة لم شعث ما تفرق من مسائل البلاغة ، وهو ما جعل بعض الباحثين يصفونها بالتمزق والتفرق مما يشتت ذهن الدارس ، ويتأتى ذلك بتناول الأمور والنكات التى يجمعها غرض واحد فى سياق واحد ما كان ذلك ممكنا وقد سميت ذلك « الطريقة الموضوعية » فى تدريس البلاغة على غرار التفسير الموضوعى من جمع كل الآيات التى تتعلق بموضوع معين ، ودراسة كل ما يتعلق بالموضوع من خلال النظر فى جميع تلك الآيات حسب ظروف كل منها ، ومن حسنات تلك الطريقة الموضوعية فى تناول دروس البلاغة أنها تقضى على ما يتوهم من تفرق لمسائلها ، وتوزيع لمباحثها ، وتبعد التشتت عن الأذهان ، وتعين على حصر أسرار البلاغة فى العقول بصورة إجماليه ، فلا يصبح من الصعب تذكر بعضها ، ولا غرو فقد كانت تلك طريقه « عبد القاهر » فى كثير من المواطن وقد رأيناه يجربها أكثر من مرة ، يجربها فى : حديثه عن : النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع — حينما تحدث فى سياق ذلك عن : المزاوجه ، والعكس والتبديل ، والتشبيه التمثيلى ، والتقسيم ، والتشبيه المركب ، والاستعارة[1] .

وجرب نفس الطريقه بالنسبه لكل من : التقديم والتأخير والحذف فى الأساليب العربيه ، وقد عرض لها المتأخرون فى أكثر من موطن ،

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ص : ٧٢ ، ٧٣

مرة فى أحوال المسند إليه ، وثانية فى أحوال المسند ، وثالثة فى متعلقات الفعل ، ورابعة بالنسبة للحذف فى : الإيجاز .

وتناول مسائل البلاغة على هذا النهج الموضوعى الذى طبقه عبدالقاهر يفيد ويريح كلا من المعلم والطالب ، ويعد من أهم ما ينبغى الأخذ به فى مجال التجديد فى طريقة تقديم الدرس البلاغى .

وينبغى أن يراعى هذا فى كل أبواب البلاغة ، وجميع فنونها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، ينبغى أن تتناول كل الأساليب العربية التى تجىء على خلاف مقتضى ظاهر الحال فى سياق واحد .

وفى البيان يدرس الأثر البلاغى لجميع فنونه فى سياق واحد ، حيث تتفق فنون البيان حول أسرار بلاغيـــة واحدة وهى : المبالغة والبيان والإيجاز ، مع اختلاف هذه الآثار باختلاف الأساليب ، وتباين المقامات .

وفى البديع تجمع الفنون التى تكاد تلتقى حول سر بلاغى واحد فى إطار واحد ، مع الاجتهاد فى ربط الأساليب المعروضة بالأحوال التى ذكرت فيها ، فمثلا : يدرس الجناس والسجع تحت عنوان « موسيقى الأسلوب » ، والطباق والمقابلة والعكس والتبديل تحت عنوان : « التضاد » والجمع والتفريق والتقسيم والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم واللف والنشر تحت عنوان : البيان بعد الإبهام — والجناس والتورية والاستخدام تحت عنوان : الإيهام أو الخداع — وتأكيد المدح بمـــا يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح والتفويف تحت عنوان : الدعوى المصحوبة بالدليل . إلى غير ذلك من فنون البديع التى يمكن بذل الجهد وإطالة النظر جمع المتشابه منها على سر جمالى واحد هذا مع التقديم لذلك السر البلاغى الذى ينضوى تحته عدد من الألوان لشرح وجوه حسنه ، وتوضيح بواعث جماله .

(ج) الطريقة الموضعية :

ويتصل بالطريقة السابقة حول تجديد الدرس البلاغى من ناحية تجديد الطريقة المتبعة فى تناوله ما سميته . الطريقة الموضعية — التى يهتم فيها بإبراز كل ما يشتمل عليه النص من وجوه البلاغة وأسرارها ، وذلك له أثره الواضح فى تجلية النص واستكناه أسراره ، إلى ما تؤدية تلك الطريقة من إلغاء فكرة تمزق البلاغة وتفرقها ، حيث يتكرر الشاهد الواحد مرات كثيرة فى فنون البلاغة المختلفة ، وأبوابها المعهودة ، بل كثيراً ما ترى الشاهد يتكرر فى الفن البلاغى الواحد أكثر من مرة ، وواضح أن تنفيذ هذه الطريقة يرتبط بتنفيذ الطريقة السابقه ، وقد طبقها كثير من البلاغيين ومنهم عبد القاهر وضياء الدين بن الأثير ويحيى العلوى والسيوطى

٥ — تجديد البلاغة بالبلاغة :

رأيت بما ذكرناه من اقتراحات حول تطوير الدرس البلاغى وتجديده من واقع تجربتنا معه أنا لم نتجاوز نطاق البلاغة إلى غيرها كما فعل ذلك كثير من المنادين بالتجديد ، فكان تجديدهم تمييعا للبلاغة وطمسا لمعالمها ، وللدرس البلاغى كيانه المستقل وروحه المتميزة ، ولن يدوم له هذا التميز إلا إذا كان كل تطوير البلاغة يتم بالبلاغة نفسها وليس بشىء آخر .

وسبيل ذلك يتمثل فى الوقوف على المقاييس البلاغية فى مكانها من كتب البلاغيين المتقدمين ، والاجتهاد فى محاولة تطبيقها على النصوص الأدبية الحديثة ، وفى هذا ما يربط البلاغة بالمجتمع ويصلها بالحياة .

وقد جرب هذا النهج بعض أساتذة البلاغة المعاصرين ، فأحمد موسى فى « البلاغة التطبيقية » يجمع بين القاعدة والنص مع الاهتمام بإبراز الأسرار البلاغية ، وما يضفيه البيان من حسن على الأساليب ، إذ الكتاب يدور حول

فنون البيان ، وبعض فنون البديع ، متأثراً بمنهج «عبد القاهر» فى عقد الموازنات الأدبية بين النماذج المختلفة التى يشملها فن بلاغى واحد ، وغير ذلك مما يجعل الكتاب مفيدا فى ميدانه ، وفريدا فى مجاله ، ومتطابقا مع عنوانه ، غير أنه لم يضم قدراً وافياً من الأساليب المعاصرة(١) .

فخلاصة رأينا فى تجديد البلاغة إذاً يتمثل فى أن تجديد الدرس البلاغى بالبلاغة هو خير ما يحفظ لها كيانها ، ويضمن لها الخصوبة والنماء والغنى والثراء .

ومعلم البلاغة الناجح هو الذى يقدم الدرس البلاغى لطلابه بأسلوب يناسب روح العصر ، عماده فى ذلك التعمق فى فهم التراث البلاغى المتقدم ، وتطبيق مقاييسه على الأساليب الأدبية الحديثة بأسلوب يتجافى عن التعقيد ، وهذا خير ما يحقق الهدف ويؤدى الغرض من الدرس البلاغى .

(١) البلاغة التطبيقية د/ أحمد موسى ط أولى .

الفصل الثانى

البلاغة واللغة

يتناول هذا الفصل النقاط التالية :

١ — البلاغة والثقافة الإنسانية .
٢ — البلاغة فى ضوء علم اللغة القديم .
٣ — البلاغة فى ضوء علم اللغة الحديث .
٤ — فقه اللغة .
٥ — متن اللغة .
٦ — اللهجات العربية .
٧ — الأصوات اللغوية .
٨ — القراءات القرآنية .
٩ — العروض والقوافى .
١٠ — النحو .
١١ — الصرف .
١٢ — الأدب .
١٣ — النقد .
١٤ — القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ .
١٥ — الجانب الاجتماعى فى علم اللغة الحديث .
١٦ — التاريخ .
١٧ — علم النفس .
١٨ — علم الاجتماع .
١٩ — منزلة البلاغة من العلوم .

البلاغة والثقافة الإنسانية :

علم البلاغة كغيره من العلوم يعد حلقة من حلقات الثقافة الإنسانية وفرعا من فروعها المتنوعة التي يخدم بعضها بعضا ، فهو بالضرورة متصل بها اتصال الفرع بأصله يأخذ منها ويعطيها ، ويؤثر فيها ويتأثر بها .

ومراعاة هذا السنن بالنسبة للبلاغة من أهم ما يربطها بالحياة ، ويصلها بالمجتمع ، ويجنبها العزلة والانطواء ، ويكشف عن وجوه أصالتها ، وعوامل تميزها .

وانطلاقا من ذلك السنن كانت دعوات المنادين إلى تجديد البلاغة في العصر الحديث وتناول الدرس البلاغي في إطار علاقة البلاغة بالعلوم الإنسانية ، وقد ناقشنا هذه الاتجاهات ، وما لنا من آراء حولها في الفصل السابق .

ومعرفة ما بين البلاغة وزملائها من فروع علم اللغة بمفهومه القديم والحديث من وجوه التعلق ، يعد درسا هاما ينبغي أن يزود به طلاب العربية في مستهل عهدهم بالبلاغة ، ومع بدء دراستهم لها لما له من آثار كبيرة في استيعاب دروس البلاغة ، والنفاذ إلى فهم أسرارها ، وهذا ما لمسته بنفسي ووقفت على نتائجه بصورة عملية من خلال تجربتي مع درس البلاغة .

ولئن بدت مناهج البلاغة في كثير من معاهد العلم شبه خالية من التنبيه على ضرورة هذا الدرس ، ومدى أهميته في مستهل معاشرة دروس البلاغة فمعذرتها في ذلك أنها تمضي على نهج البلاغيين المتأخرين الذين لا يولون هذا الدرس شديد اهتمام ولا يعطونه كبير اعتناء ، إذ لم يلتفتوا إليه إلا في نطاق محدود جدا في مقدمة البلاغة عند ذكرهم للعلوم التي ينبغي أن يحيط بها دارس البلاغة ليتسنى له الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وليتأتى له أن يحافظ على فصاحة الكلمة والكلام بالخلو من التنافر والغرابة

ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى ، وهى أهم العيوب التى تخل بفصاحة الكلام وبلاغته فذكروا أن تجريد الكلام وسلامته من هذه العيوب يحدث بدراسة علوم النحو والصرف واللغة والمعانى والبيان إلى جوار الذوق السليم وكانت تلك أهم العلوم التى نبه المتأخرون من البلاغيين على ضرورة الإلمام بها فى ذلك النطاق المحدود[١] .

وقد بدا الاهتمام بهذا الدرس واضحا فى تآليف البلاغيين المتقدمين ، إذ نبهوا على ما يستعان به من العلوم فى دراسة البلاغة تحت عناوين محددة ، على نحو ما فعل « ابن سنان الخفاجى » وإن كان كلامه عن ذلك قد جاء فى نهاية كتابه « سر الفصاحة »[٢] وما صنع « ضياء الدين بن الأثير » فى مطلع كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » عن « آلات علم البيان وأدواته »[٣] ويحيى العلوى الذى كان أكثر تفصيلا ، حيث قسم العلوم التى يحتاج دارس البلاغة إليها إلى مراتب ثلاث : علوم لا أثر لها ولا يفتقر إليها ، وعلوم لا بد منها ، وعلوم يستحسن الإلمام بها[٤] .

فكان البلاغيون المتقدمون أكثر توضيحا لهذه العلاقة، ومع ذلك فإنهم لم يتجاوزوا فيما ذكروه العلوم السابقة التى نبه عليها الخطيب القزوينى وإن كانوا قد ذكروا أن الإلمام بكل علم والضرب فى كل سبيل مما يفيد دارس البلاغة كما ذكر ابن سنان الخفاجى[٥] .

فالدرس البلاغى ينبغى أن يكون المدخل إليه درسا مبسوطا يوضح

---

(١) بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ٣١/١ .
(٢) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص : ٢٨٠
(٣) المثل السائر : ابن الأثير ٤٣/١ ، ٤٤
(٤) الطراز : يحيى العلوى ٢٣/١
(٥) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص : ٢٧٢

علاقة البلاغة بأسرتها اللغوية بمفهوم اللغة قديما وحديثا ، وإن كان ذلك الدرس ضروريا وهاما لبسط مقدمة البلاغة بمايبرز بالغ أهميتها ، ويوضح عظم قيمتها ، ويكشف عن الهدف من دراستها ، فإن له أهمية لا تقل عن ذلك أثرا فى تفهم مسائل العلم والتعمق فى إدراك أسراره .

البلاغة فى ضوء علم اللغة القديم :

لا يدرك دارس البلاغة على منهج البلاغيين المتأخرين أهمية اللغة للدرس البلاغى إلا من ذكرهم لها مع النحو والصرف والمعانى والبيان ليحترز بها عن الخطأ فى فصاحة الكلام وبلاغته كامر ، وما نبهوا على تحصيله من اللغة فرع واحد من فروعها المتنوعة وهو متن اللغة الذى تعين دراسته على تجنب الكلمات الغريبة والألفاظ النادرة والشاذة ، والحق أن علاقة البلاغة باللغة تتعدى هذا النطاق المحدود وتتجاوزه إلى كل مايتعلق باللغة فى مفهومها القديم والحديث ، بل إلى كل ألوان الثقافة ، ومتعدده صنوف المعرفة .

فاللغة بمفهومها القديم وهو تعلقها بالبحث فى مفردات اللغة من الناحية المعجمية والنحوية والصرفية والبلاغية تتصل بالبلاغة اتصالا قويا ، وتؤثر فيها تأثيرا واضحا ، وقدكانت الأبحاث البلاغية أول عهدها إشارات موجزة فى كتب اللغة ، حينما كانت الدراسات اللغوية عامة أول أمرها لا تعرف التخصص المعهود الآن .

ويعد كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى تفسيرا لغويا ، وهو أول كتاب من كتب البلاغة[1] .

على أن من ينظر فى مؤلفات اللغويين والنحاة فى القرون الأولى يجدها حافلة بالإشارات البلاغية ، والتعليقات البيانية التى تعد اللبنات الأولى

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفه فيها : أمين الخولى ص : ١٧

فى صرح البلاغة كابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى : « تأويل مشكل القرآن » والمبرد فى كتابه « الكامل » وسيبويه فى « الكتاب » والفراء فى : « معانى القرآن » و « أبو عبيدة معمر بن المثنى » الظاهرة فى مجاز القرآن وغيرهم [١] بل إن اللغة بالمعنى السابق لها كانت السمة الظاهرة لبعض أعلام البلاغة الذين تأثروا فى منحاهم البلاغى بثقافتهم اللغوية ، وتجلى ذلك الطابع فى مؤلفاتهم ، فالزمخشرى الذى أدت حاسته اللغوية الدقيقة ووقوفه على الفروق الخفية بين ألفاظ اللغة وصيغها إلى اتجاهه فى تفسير النظم إلى تحليل الكلمات اللغوية والصيغ اللفظية الداخلة فى بنيان النظم فوق تحليله البلاغى للتراكيب النحوية ، كما بلغت مؤلفاته المتنوعة ما يقرب من خمسين مؤلفا أكثرها فى علوم اللغة [٢] ،

فصلة البلاغة بعلم اللغة بمفومه القديم تتمثل كما رأينا فى نشأتها ، وفى تطورها ، وفى وضوح المنحى اللغوى فى اتجاهات عدد من البلاغيين ، وفى مشاركة وجوه اللغة كلها فى تحقيق البـــلاغة للأساليب كما تتبين ذلك فيما بعد !

واللغة بمفومها القديم تصاحب البلاغة فى كل أطوار حياتها ، وقد نبه على قيمتها وأكد على أهميتها كل البلاغيين المتقدمين والمتأخرين ، بل إن من برع من البلاغيين ، ففاق أقرانه ، وسبق نظراءه هو من أجاد منهم استخدام اللغة والانتفاع بها فى دراسة البلاغة .

وينبغى أن يكون معلوما أن اللغة التى تعد مهمة ومفيدة لدارس البلاغة

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى : د . محمد زغلول سلام ص ٢٥، ٢٦

(٢) منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه د/ مصطفى الجوينى ص ٤٩ — ٥١ والنظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى : د : درويش الجندى ص : ٢٧

هى التى تعينه على الإفادة من المفاهيم البلاغية ، وتمكنه من الوقوف على أسرار التراكيب البيانية والجمالية ، وليست اللغة التى تجور على الجوانب البلاغية ، وتطمس وجوه الحسن فى الأساليب ، ويتحول فيها درس البلاغة إلى درس فى اللغة ، وقد نبه يحيى العلوى على ذلك بقوله : « فإن من كان من المفسرين نظره فى تفسير كلام الله مقصورا على معرفة المعانى الإعرابية ، وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لاغير ، من غير بيان ماتضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة ، وتقرير مواقعهما الخاصة ، فإنه يعد مقصرا فى تفسيره لكونه قد أغفل بمعظم علومه وأهملها ، وأعرض عن أجل مقاصده وتركها وهو معرفة الإعجاز ، لأنه موقوف على ماذكرناه من معرفة الفصاحة والبلاغة جميعا »(١).

فتبين من ذلك الارتباط الوثيق بين البلاغة واللغة بمفهومها القديم ارتباطا يؤكد عدم دراسة البلاغة بمعزل عن زميلاتها من فروع اللغة ، ويبين مدى بلوغ الدرس البلاغى هدفه إن قدم من خلال صلته بأفراد الأسرة اللغوية ، ولن تذهب بعيدا لو قررنا أن البلاغيين الذين ذاع صيتهم وتألق نجمهم وشهرت مؤلفاتهم هم أولئك الذين مزجوا بين اللغة والبلاغة مزجا يفيد البلاغة ولا يضرها ، ويظهرها ولا يطمسها ، كعبد القاهر وابن سنان الخفاجى ، والزمخشرى وابن الأثير ويحيى العلوى .

البلاغة فى ضوء علم اللغة الحديث :

عرفت فيما مضى أن البلاغيين المتأخرين لم يذكروا مايستعان به من علوم اللغة فى دراسة البلاغة إلا فى أضيق الحدود ، ونبه المتقدمون على ضرورة الإلمام بعلوم اللغة فى دراسة البلاغة وجاء ذلك تارة فى نهاية كتبهم

---

(١) الطراز : يحيى العلوى ١٩/١

كما فعل « ابن سنان » أو فى مستهلها كما فعل « ابن الأثير » و « يحيى العلوى » وقد استخدم بعضهم اللغة فى بحثه البلاغى بما تجلى أثره واضحا فى دراسته كما فعل « الزمخشرى » .

ويجىء علم اللغة الحديث فيرى أن اللغة مجموعة بحوث يخدم بعضها بعضا ويكمل كل منها الآخر . وهى :

— بحوث أصل اللغة أو نشأة اللغة التى تختص بالبحث فى نشأة اللغة الإنسانية ومايتصل بذلك ويعرف بفقه اللغة .

— وبحوث تتعلق بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر، وسعة وضيق ومن أهم فروعه علم اللهجات .

— وبحوث تتعلق بدراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة ، وبيان أقسامها وفصائلها وخواص كل قسم ومخارجه ، وهو علم الأصوات .

— وبحوث الدلالة التى تدرس اللغة من حيث إنها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر ومن فروعه : متن اللغة ، والنحو ، والبلاغة .

— بحوث تتعلق بالأصول التى جاءت منها الكلمات فى لغة ما ويعرف بالبحث فى أصول الكلمات .

— بحوث تتعلق ببيان العلاقة بين اللغة والحياة والاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية فى مختلف الظواهر اللغوية ، وإلى هذه البحوث تحتاج معظم الفروع السابقة .

— بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها[1] .

---

(١) علم اللغة د/ على عبد الواحد وافى ٣١٩ — ٣٢١

فعلم اللغة الحديث كما ترى يجعل اللغة بأبحاثها السابقة فى خدمة المجتمع وأن ينتفع بها ، وتستخدم الاستخدام الذى يجعلها تتفاعل مع المجتمع تأثرا وتأثيراً ، بمعنى أن أى علم منها ينبغى أن تكون دراسته من ناحية علاقته ببقية زملائه ، ومن ناحية علاقته بالأصل الذى تفرع عنه ، ثم من ناحية آثاره بالنسبة للحياة والمجتمع .

وأعتقد أن هذا المفهوم الحديث للغة ليس جديدا كل الجدة ، بل أنه عودة بمفهوم اللغة إلى أصلها الأول الذى كان به ازدهارها ، عندما كانت اللغة وحدة يخدم بعضها بعضا ، وكان عالم اللغة ملما بجميع فروعها ، محيطا بكل جوانبها ، على النحو الذى تعبر عنه مؤلفات القرون الأولى التى كانت أشبه بموسوعات فى الثقافة العربية والإسلامية كالكتاب لسيبويه ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والخصائص لابن جنى ، وغيرها من كتب العربية التى كانت على ذلك النمط ،

فإذا فكان مهما أن يبدأ الدرس البلاغى كما ذكرنا فى مطلع الفصل بمدخل يوضح علاقة البلاغة بغيرها من العلوم التى تؤثر فيها وتتأثر بها ، وكان الكلام السابق عن هذه العلاقة يتسم بطابع العموم ، فإنا سنذكره بشىء من التحديد فيما يتعلق بكل فرع من فروع علم اللغة الحديث .

فقه اللغة :

ويزخر فقه اللغة بعدد من المباحث الهامة التى ينبغى أن تطعم بها دروس البلاغة وأن يستعان بها فى فهم أسرار الألفاظ ، وقد ذكرها بعض البلاغيين المتقدمين اقتناعا بأهميتها وإدراكا لقيمتها فى الدرس البلاغى ومنها : المبحث الخاص بالألفاظ المترادفة والمشتركة والمتضادة ، فينبغى أن يلم به دارس البلاغة ليستعمل الألفاظ التى تناسب موضوعه ويتجنب الأخرى التى تكون أقل تناسبا وقد عرض له من البلاغيين : ابن الأثير والعلوى والسيوطى ،

وكذلك المبحث الخاص بالوجوه السديدة لاستعمال الألفاظ المفردة والمثناة والمجموعة فى الأساليب العربية ، للوقوف على ما يحسن استعماله مفردا ولا يحسن مجموعا ، وما يحسن مجموعا ولا يحسن مفردا ، وكذلك بالنسبة للمثنى ويعد من أهم المباحث التى لا غنى عنها لدارس البلاغة ، حيث يتبين من خلالها أسرار لغتنا العربية التى تعينه إلى مدى بعيد فى تذوق مسائل البلاغة وعلى ضوء هذه المباحث كانت كثير من المواقف النقدية ، كاستحسانهم لفظ « الأخدع » مفردا لخفته وسهولة النطق به فى قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى   وجعت من الإصغاء ليتا واخدعا

واستهجانهم له مثنى فى قول أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

فاللفظة واحدة ، وقد فعل بها اختلاف الصيغة ما رأينا من خفتها فى الأول حاله الإفراد ، وثقلها فى الثانى حالة التثنية .

فالوقوف على الدروس المتعلقة بذلك يعين فى تذوق مثل هذه الانتقادات ومن مباحث فقة اللغة أيضا التى لا ينبغى أن يغفل عنها دارس البلاغة ، معرفة الفروق الدقيقة والخفيه فى استعمالات الحروف المتشابهة فى المعنى ليضع كلا منها فى موطنه الملائم كى يؤدى الغرض من كلامه كتبين الفرق فى المعنى بين لم ولما الموضوعين للنفى ، فإن لم تنفى حدثا مالم يقع فى الزمن الماضى ويجوز أن يكون عدم وقوعه ممتدا لزمن التكلم أو لا يكون

---

(١) الليت : صفحة العنق ، والاخدع . عرق فيها ، والاصغاء : الميل .

(٢) الخرق : الحمق   (٣) المثل السائر : ابن الأثير ١/٣٨٤

بينما تفيد لما بوضعها القطع باستمرار عدم وقوع الحدث إلى زمن التكلم فندرك من ذلك سر حكم البلاغيين بأبلغية قولنا: ندم ولما ينفعه الندم على قولنا ندم ولم ينفعه الندم ، لما يؤديه النفى فى العبارة الأولى من إفادة عدم نفع الندم له حتى لحظة التكلم، ولما كان أى تغير فى المعنى يتبعه بالضرورة تغير فى اللفظ فقد عبر عن ذلك الفرق الدقيق بين لم ولمـــا فى الاستعمال والذى لا يتنبه له إلا من وقف عليه فى موطنه من كتب اللغة بزيادة فى عدد أحرف لما ، وهذا يجعلنا نستعين كذلك فى دروس البلاغة بالمبحث اللغوى الهام الذى يتعلق بالبلاغة تعلقا قويا ويؤثر فيها تأثيرا شديدا وهو البحث الذى يدور حول: قوة اللفظ لقوة المعنى ، وعن بيان قيمته يقول يحيى العلوى : « أعلم أن هذا الباب له حظ وافر من علوم المعانى ، وله فيها قدم راسخة ، وقد ذكره « ابن جنى » فى كتاب « الخصائص » ، وأورده ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » ، وماذاك إلا لعلمهما بعلو مكانته فى أبواب المعانى »(١).

كذلك من المباحث الهامة التى تفيد دارس البلاغة البحث الذى يتعلق بالتطور الدلالى للألفاظ على مر العصور وتتابع السنين هذا التطور الذى نلمسه فى : اختفاء ألفاظ ، وظهور ألفاظ جديدة ، وإنتقال ألفاظ من معنى لمعنى آخر وغير ذلك من وجوه التطور الدلالى للالفاظ الذى هو من طبيعة اللغات ، فمن الأهمية بمكان لدارس البلاغة الذى تدور دراسته حول كيفية الملاءمة بين الأقوال والمقامات أن يقف على وجوه التطور الدلالى للالفاظ ، ليتأتى له وضع اللفظ المناسب للمعنى المقصود ، وقد يكون ذلك صعبا لعدم وجود معجم تاريخى يوضح هذا التطور للالفاظ من الناحية الدلالية على مدى التاريخ . لكن يتسنى إدراك ذلك بكثرة

---

(١) الطراز : يحيى العلوى : ١٦٢/٢

المطالعة والتعقب لآثار المعاصرين من الأدباء والمثقفين ، وفى لغتنا العربية ألفاظ كثيرة من هذا القبيل منها : ألفاظ كانت عامة المدلول ثم حددها الإسلام بمعان خاصة مثل : الصلاة والزكاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق وغيرها من الألفاظ التى كان لها معنى عام فى أصل وضعها فحددها الاسلام بمعنى معين يرتبط بالمهمة التى تقوم بها ، فالحج مثلا فى أصل وضعه اللغوى يعنى قصد الشىء والاتجاه إليه فحدده الاسلام بقصد بيت الله الحرام ، وشاع استعماله فى هذا المعنى ، حتى غدا مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة ، وكذلك بالنسبة لغيره من الألفاظ .

ومن هذا أيضا كثير من الألفاظ التى استخدمت فى معان مجازية ، وشاع استخدامها فى المعنى المجازى حتى أضحى لها كالحقيقة ونسى المعنى الأصلى مثل كلمة : الغفر ، إذ أصلها فى اللغة الستر وانتقلت إلى الصفح عن الذنوب حتى لا ينظر إلى المعنى الأصلى ، وكلمة « العقيقة » فقد انتقلت من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه إلى مايذبح عنه عند حلق ذلك الشعر . (١)

فمثل هذه الأبحاث اللغوية وغيرها من الأبحاث القيمة التى لا يتسع المجال لسردها ينبغى أن تكون دروسا أساسية ضمن دروس البلاغة ، حيث تعين إلى مدى بعيد فى بلوغ الدرس البلاغى أهدافه وفى مقدمتها : تذوق أسرار البلاغة القرآنية ، وتنمية حاسة التذوق اللغوى والأدبى ، ولا غرو فالبلاغيون الذين أدت دراساتهم حول البلاغة أهدافها ، وبلغت غاياتها هم الذين نهجوا ذلك النهج ، وأبانوا عن الأسرار البلاغية فى كلام الله على هدى من الافادة .

---

(١) علم اللغة د : على عبد الواحد وافى ص : ٣١٩ — ٣٢١

بالأبحاث اللغوية السابقة وهم فى القديم : عبد القاهر ، والرمانى ، والخطابى ، والزمخشرى ، وابن الأثير ، ويحيى العلوى وفى الحديث : محمد عبد الله دراز ومصطفى صادق الرافعى .

فنى معظم الأبحاث التى قدمها السابقون وجدنا اللغة ممزوجة بالبلاغة ورأينا البلاغه موضحة باللغة ، أى إن اللغة أفادت دراساتهم البلاغية بما بلغ بها غايتها وحقق لهـا هدفها .

متن اللغة :

وتتعلق البلاغة بمتن اللغة «المعاجم» تعلقا سديداً ، إذ أن المحافظة على فصاحة الألفاظ بخلوها من الغريب والنادر يقتضى الوقوف على المستعمل والمهمل من ألفاظ اللغة ، وقد نبـه البلاغيون المتأخرون كما ذكرنا من قبل على ضرورة دراسة متن اللغة فى حديثهم عن الغرابة لكنهم لم يذكروا كيف تكون دراستها بما أوحى إلى كثير من الدارسين أن ذلك يكون بالنظر فى معاجم اللغة وهى كثيرة لاحصر لها ، لكن البلاغيين المتقدمين قد نبهوا فى دعوتهم إلى دراسة متن اللغة إلى الطريقة التى تكون بها تلك الدراسة بالوقوف عليها فى ميدان استعمالها ومجال تداولها وهو القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ والمختار من كلام العرب نظمه ونثره ، وذلك يعد السبيل المفيد لمعرفة مفردات اللغة والانتفاع بها ، أما دراسة مفردات اللغة فى معاجمها فليس مجديا بحال من الأحوال إلا عند تحديد معنى لفظ، كما أن الذى يقرض شعرا أو يكتب مقالة لا يبدأ عمـله باستشارة معاجم اللغة ، وجمع المفردات التى تضمها قصيدته ، أو تحويها مقالته ، وإنمـا يقرض الشعر ويدبج المقالة على ضوء تجاربه السابقه مع الألفاظ والمفردات .

كما أن ألفاظ اللغة فى تطور مستمر كما ذكرنا فى السطور السابقة ، وذلك

يقتضى أن يكون صاحب صنعة الكلام على صلة مستمرة وعلاقة وثيقة بأدب العصر فى شعر شعرائه وخطب خطبائه ومقالات كتابه وقصص أدبائه ، فالمطالعة الكثيرة توقف على المستعمل والمألوف من الألفاظ وتجنب المهمل والشاذ منها .

اللهجات العربية :

وتعد اللهجات فرعاً من فروع علم اللغة الحديث كما عرفت، تهتم بالبحث فى حياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر ، وعظمة وضعة ، وتعلقها بالبلاغة من حيث إنها توضح للبليغ خصائص لهجة المخاطبين وسماتها ليراعيها فى صوغ كلامه حتى يكون أدعى إلى التأثير ، وأقرب إلى القبول ، ولكل جماعة لهجتها المعينة التى تخضع لظروف كثيرة : بيئية ومهنية واجتماعية وغيرها [١] .

الأصوات اللغوية :

علم الأصوات فرع هام من فروع علم اللغة الحديث كما ذكرنا ، ونظراً ونظرا لأهميته فى دراسة اللغة وحسم كثير من مشكلاتها فإن كثيراً من الجهات المعنية بالدراسات اللغوية توليه قدراً من العناية ومبلغا من الاهتمام كإقامة المعامل الصوتية والوقوف على أحدث الدراسات عنه فى مدارس الغرب ومعاهده .

وللاصوات تعلق شديد بالمدرس البلاغى ولها تأثير قوى فيه، فالبلاغة تعتمد على الفصاحة ، والفصاحة أى الوضوح والظهور بالنسبة للكلمة مفردة والكلمات مجتمعة من مقوماتها : خفة الكلمة وسهولة نطق الكلمات

---

(١) فى اللهجات العربية د : ابراهيم أنيس ص : ٨٦ ط رابعة .

المتابعة بتلاؤم حروفها وعدم تنافرها وبحث التلاؤم والتنافر الذى يتعلق باللبنة الأولى من لبنات البلاغة وهى . الحروف يعد الأساس الذى يقوم عليه الدرس البلاغى ، ولئن لم يتفق البلاغيون على تحديد منشأ التنافر أهو تقارب الحروف أم تباعدها أم غير ذلك ؟

وردوا ذلك فى النهاية إلى سلامة الذوق أو عدم سلامته فذلك يدلنا على قيمة دراسة الأصوات فى مثل هذه المواقف ، وإن كنا لا نتبين تلك العلاقة الوثيقة بين البلاغة والأصوات إلا من خلال هذا الجانب المتعلق بفصاحة الكلمة والكلام فى مقدمة البلاغة المتأخرة ، فإنا نتبينه على وجه أكثر ظهورا وأشد وضوحا فى جانب آخر لا وجود له فى بلاغة المتأخرين بصفة محددة، وهو من الأبحاث اللغوية التى نقع عليها فى كتب البلاغيين المتقدمين، وتؤكد لنا أن للحروف أثرا كبيراً فى بلاغة الأسلوب وأن الدرس البلاغى ينبغى أن يطيل الوقوف عند الحروف وما يتعلق بها لا لمعرفة مخارجها قرباً وبعدا فحسب كما هو كائن لدى البلاغيين المتأخرين فنتبين الأثر الواضح للحروف فى بلاغة الأسلوب مما ذكره بعض اللغويين والبلاغيين من فلسفة صوتية تبين وجوه التناسب بين الأصوات والمعانى ، من استعمال الحروف الضعيفة واللينه والخفية والمهموسة والحروف القوية والظاهرة والمجهورة للأعمال القوية والضعيفة والعظيمة ، كقولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان مثلهما من المأكول ، والقضم للصلب واليابس ، والنضح لرش الماء ونحوه ، والنضخ لما كان أقوى من ذلك كالفوران والتدفق قال تعالى : « فيهما عينان نضاختان[1] » .

فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه .

---

(١) سورة الرحمن : ٦٦ .

وهكذا تعرف قيمة الحروف فى بلاغة الأسلوب ، وتعرف قيمة الأصوات وشدة تعلقها بالبلاغة من هذه الناحية التى يقول عنها ابن جنى :

« فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ... وذلك أنهم كثيراً مايجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها[١] .

وإذ تبينا فى ذلك مقدار العلاقة بين البلاغة والأصوات ، فإنا ندعو إلى أن يكون الكلام عن الحروف فى مطلع دروس البلاغة أشبه بالفلسفة الصوتية التى تكشف عن كبير تعلقها بأسرار التراكيب ، وقد فعل ذلك « ابن سنان » إذ وقف طويلا عند الحروف يوضح كل مايتعلق بها ، وقد أطال بعض الشىء فى ذلك لكنه كان مصيبا شاكلة الصواب ، حيث أعطى لهذا العنصر الهام من عناصر الأسلوب حقه من الدراسة والبحث .

القراءات القرآنية :

والبلاغة كذلك عظيم الاتصال ، وقوى التعلق بالقراءات القرآنية ، حيث تختص القراءات بناحية الأداء القرآنى ، ومن أول أهداف الدرس البلاغى كما نعلم : الوقوف على أسرار الإعجاز فى كلام الله ، وعلى الرغم من ظهور هذه العلاقة بين البلاغة والقراءات فلم تظفر بعناية واضحة من البلاغيين المتقدمين والمتأخرين، ويظهر ذلك الارتباط الواضح بين القراءات والبلاغة من ناحية ماهو معلوم من أن الاختلاف فى الشكل وهو ماتبنى عليه القراءات فى وجوهها المتنوعة يتبعه اختلاف فى المعنى ، وقد وجدنا ذلك واضحا لدى الزمخشرى الذى كان مهتما ببيان الوجوه المتعددة لمعانى الآيات ،

---

(١) الخصائص : ابن جنى ١/٥٤٩ - ٥٥٣ ت : محمد على النجار ط دار الكتب والمزهر للسيوطى ١/٥٣ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

فكانت القراءة المفضلة عنده التي تحمل وراءها معنى قويا يخدم التفسير القرآني، كقوله في الآية الكريمة: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» قرىء: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل. ما أكبرها كلمة[1].

والمرحوم مصطفى صادق الرافعي من المعاصرين الذين أدركوا أهمية القراءات في إبراز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، إذ يرى أن اختلاف القراءات وتعددها في القرآن من وجوه إعجازه اللغوي، وأن الحكمة من تعدد القراءات.

وتنوعها أن يسهل على العرب حفظه وفهمه بلهجاتهم المتغايرة، وليتم للتركيب القرآني روعة الإيقاع وعذوبة النغم وحسن الانسجام، فيدرك العرب على اختلاف لهجاتهم الموسيقى القرآنية التي يتميز بها النظم القرآني، كما يرى الرافعي أن من حكمة اختلاف القراءات وتعددها خلاف ماسبق تيسير حفظ الأميين للقرآن، وتسهيل الأمر على الفقهاء في استنباط الأحكام والتشريعات[2].

العروض والقوافي:

وعلاقتهما بالبلاغة لا تحتاج إلى تنبيه، فهما يحافظان على موسيقى الأشعار والبلاغة تهتم ببحث أحوال الأساليب منثورها ومنظومها، وقدنبه

---

(١) الكشاف: الزمخشري الآية ٥ من سورة الكهف ٢/٤٧٢

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص: ١٣١ - ١٣٤، والإعجاز البلاغي في تراث الرافعي رسالة - للمؤلف بمكتبة كلية اللغة العربية.

على ضرورة الإلمام بقوانينهما كثير من البلاغيين المتقدمين ، ومنهم ابن سنان الخفاجي[1] .

النحو :

ويعرف النحو فى علم اللغة الحديث بعلم التنظيم ، ولعل هذه التسمية مأخوذة من مصطلح النظم فى البلاغة ، ولا تدرك صلته بالبلاغة وأثره فى الأساليب فى صنع المتأخرين إلا من ناحية إفادته فى تحقيق الفصاحة للكلام بخلوه مما يعرف بضعف التأليف والتعقيد اللفظى اللذين يخلان بفصاحة الكلام لعدم تطبيق قواعد النحو .

والحقيقة أن علاقة النحو بالبلاغة تتعدى ذلك النطاق المحدود وتتجاوزه إلى كل ما يوفر الحسن والجمال للأسلوب .

وإذا كانت مهمة النحو الأساسية المحافظة على سلامة الألفاظ من الناحية الإعرابية ، فإن مهمته بالنسبة للبلاغة تتمثل فيما وراء ذلك من تنسيق الألفاظ ووضعها فى الأسلوب على حسب تعلقها بالمعانى المقصودة ، وذلك ما قامت عليه نظرية عبد القاهر حول « النظم » التى تنظر إلى الكلمة من خلال موقعها فى التركيب على حسب الغرض الذى يصاغ له الكلام ، وقد مكن عبد القاهر من توضيح نظريته السابقة على الوجه الذى جعلها مثار إعجاب علماء الأسلوب من القدماء والمحدثين فى الشرق والغرب ثقافته النحوية ، وتعمقه فى فهم أصول النحو وأسراره ، فقد بدأ حياته نحويا ، وله مؤلفات فى النحو ، فأفاد من معرفته بالنحو فى دراسة البلاغة بما تجلى أثره فى نظريته السابقة التى تعد لب البلاغة وروحها ، وتبين إلى مدى بعيد أثر النحو

---

(٤) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص : ٢٨٠ تحقيق : عبد المتعال الصعيدى .

فى كل جزئية من جزئيات التركيب صحة وفسادا على حد قوله: «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه، ووضع فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ماينبغى له فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وكان مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه وإلا وجدت ذلك الوصف يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه[1].

ولما كانت مهمة النحو الأساسية تتمثل فى المحافظة على سلامة التركيب من الناحية الإعرابية، فإنا قد نرى من الأساليب مايتسم بالركاكة وإن بدا سليما من الناحية النحوية، ومن هذا معظم الأساليب التى عابها كثير من البلاغيين والنقاد على الرغم من اتفاقها مع قواعد الإعراب، مما يؤكد أن مهمة النحو فى البلاغة أمر وراء الضبط والإعراب.

ومدرس البلاغة الكفء هو الذى يعمل دائما على الإفادة من قواعد النحو فى توضيح الأسرار البلاغية، ويظهر العلاقة بين سلامة النظم من الناحية البلاغية ومراعاة قواعد النحو بكل دقة، وكذلك يبين أثر عدم مراعاة قواعد النحو فى التواء الأساليب من الجهة البلاغية.

كما أن مدرس النحو الناجح هو الذى لايقف فى تدريس النحو عند تحديد وجوه الضبط والإعراب مقطوعا عن الناحية البلاغية، بل كلما ربط بين وجوه الضبط المحتملة، ومايترتب عليها من اختلاف لمعنى الأسلوب كان ذلك أجدى لدرسه، ويكشف ابن الأثير هذه العلاقة التى ينبغى أن

---

(١) دلائل الإعجاز: عبد القاهر ص: ٦٤، ٦٥

تكون بين النحو والبلاغة بقوله : « وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم مافيه من الفصاحة والبلاغه ومن هنا غلط مفسر الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى ، ومافيها من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون شرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة[1] » .

وإذا كانت هناك درجات تحدد مقدار القرب بين البلاغة وغيرها من العلوم فينبغى أن يعلم أن أقرب العلوم تعلقا بالبلاغة وشدة ارتباط بها هو علم النحو الأمر الذى يجعلنا نرى أنهما نشآ معا فطريا أول الأمر فى كلام العرب الأول ، وتأليفا بعد أن تسرب اللحن إلى الأساليب فلزم ضبط اللغة والمحافظة عليها من أخطار اللحن ، ويؤكد ذا مؤلفات القرون الأولى حيث نجد النحو مختلطا بالبلاغة ، ولم تكن كتب النحو أو البلاغة على النمط التخصصى الذى عرفته الأزمنة اللاحقة ؛ فما يذكر من أن النحاة هم أصحاب الفضل الأول فى نشأة الدراسات البلاغية كلام يحتاج إلى مراجعة وتمحيص[2] .

---

(١) المثل السائر : ابن الأثير ١/٣٩ ، ٤٠

(٢) أثر النحاة فى البحث البلاغى . د عبد القادر حسين

الصرف :

والصرف فى علم اللغة الحديث يدخل ضمن المباحث التى تتعلق باشتقاق الكلمات وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك وتعرف بعلم «البنية» ، فهو يختص ببحث ما يعرض للألفاظ من : إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث وإعلال وإمالة وإدغام وغيرها ، ونبـــه البلاغيون المتأخرون على أهمية دراسته فى المحافظة على سلامة الكلمة من العيوب التى تلحقها لعدم استخدامه فيما اصطلح على تسميته بمخالفة القياس.

وقد رأى العلوى أن الاهتمام بمراعاة قوانين الصرف فى دراسة البلاغة لا يقل أثراً عن تطبيق مبادىء النحو «ومن لم يحرق فإنه لا يأمن الوقوع فى محذور الكلام ومكروهه ، فإنه لا فرق فى اللحن بين تغيير الكلمة عن إعرابها الجارى لهـا ، وبين تغيير بناء الكلمة وتصريفها على خلاف ما يقتضيه قياسها»[1] .

وقد أصاب «ابن الأثير» حين عرف فضل النحو والصرف وما لهما من أثر فى الدرس البلاغى ، لكنه حاد عن الصواب حينما عاد يناقض نفسه ويرى أن الجهل بالنحو والصرف لا يؤثر على البلاغة والفصاحه ، وأن الكلام قد يستقيم من الناحية البلاغية على الرغم من خروجه على قواعد النحو والصرف، وأنك لو قلت : «قوم» بإثبات الواو بدون جزم لما اختل شيء من المعنى ، وكذلك لو قلت : جاء محمد راكب وقام الناس إلا على بتسكين المستثنى لما تغير المعنى ، والأمر أيضاً بالنسبة لبقية الفضلات فى النحو وللإدغام فى الصرف[2] ، وغاب عن «ابن الأثير» أن البلاغة أمر كلى لا يتمثل فى وضوح المعنى فقط ، وإنما البلاغة اتساق وانسجام ، وترابط ،

---

(١) الطراز للعلوى ١/٢٦

(٢) المثل السائر : ابن الأثير ١/٤٤ - ٦٦

يجعل الأسلوب كله ماءاً واحداً ، ولا سبيلا معتدلا لا التواء فيه ولا انكسار ، وعلوم اللغة كلها وإن اختلف موضوع كل منها ، فإنها جميعا تلتقى على توفير الانسجام للأسلوب . والاتساق للتركيب ، هذا الاتساق الذى يعرف به فضل أسلوب على أسلوب ، ويميز تركيباً عن تركيب .

الأدب :

المنهج السليم السديد لدراسة البلاغة هو المضى فى تدريسها على طريقة المتقدمين أى فى ميدانها العملى ، وهو ميدان الأدب ، والحديث عن تدريس البلاغة من خلال الأدب يوضح لنا مقدار ما بين البلاغة والأدب من تعلق وارتباط ، فقد عاشت البلاغة أزهى عصورها ، وقدمت أنضج ثمارها وقت أن كانت ممزوجة بالأدب ، وكان علماء البلاغة جهابذة فى الأدب نظمه ونثره ، والأدباء أصحاب نظريات فى نقد الكلام وبلاغته ، وكان هذا طابع البلاغة فى طورها المتقدم ، إذ كانت أحد علوم الأدب على نحو ما تعبر عنه مؤلفات تلك العصور المتقدمة كطبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، والكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، والشعر والشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، فى هذه المؤلفات وغيرها نلتقى بالبلاغة فى آثار الأدباء وندرس الأدب فى ضوء آراء البلاغيين وتعليقات النقاد ، بمعنى أن البلاغة فى تلك العصور كانت فى خدمة الأدب ، وكان النقاد يتتبعون شعراء العصر وكتابه وخطباءه فراج الأدب وازدهرت البلاغة .

فهذا التاريخ الزاهر لكل من البلاغة والأدب يوضح مدى ارتباط كل منهما بالآخر ، وما يؤديه تقدير المتأدبين لآراء البلاغيين والنقاد ، وجعل البلاغة فى خدمة الأدب من رواج لكل منهما ، ومزج بين اللغة والمجتمع . وقد تأثرت البلاغة فى تاريخها الطويل وخضعت لما خضع له الأدب ،

ازدهارا وكسادا ، ولذا ينبغي الربط بين التاريخ الأدبي لكل من البلاغة والأدب(١) .

ولما كانت البلاغة فرعا من فروع اللغة كما عرفت ، واللغة تتطور بتطور الحياة ، وكان الأدب سجل اللغة ، ومرآة المجتمع يساير المجتمع فى تطوره واللغة فى تجددها ، فلابد أن تمضى البلاغة هى الأخرى فى سبيل التطور ، وتطور البلاغة وتجديدها لا يكون بتغيير موضوعاتها ، زيادة أو نقصا ، وإنما التطوير الحق للبلاغة فى ربطها بالمجتمع ووصلها بالحياة وذلك بدراستها من خلال أدب العصر وفكره ، لتكون فى خدمة المجتمع ، فنرى كتب البلاغة الحديثة زاخرة بأشعار البارودى وشوقى وحافظ ومطران ومقالات الرافعى والعقاد والمنفلوطى وطه حسين وغيرهم على غرار ما تزخر به مؤلفات البلاغيين المتقدمين بآثار أدبائها المعاصرين .

النقد :

إذا كانت علاقة البلاغة بالأدب على غرار ما شاهدته من عظيم القرب وشديد الاتصال ، وينبغى أن تزداد قربا واتصالا بما يحقق لكل منهما السمو والازدهار بمثل ما كانا عليه فى التراث العربى القديم ، فإن علاقتها بما اصطلح على تسميته بالنقد لا تحتاج لتوضيح ولا تبيين ، وقد ظهر من النقاد المعاصرين من يرى أن كلا من البلاغة والنقد علم مستقل بذاته ، وأن البلاغة والنقد كانا علما واحدا يتعلق بالنظر فى الأساليب العربية تقويما وتهذيبا على نحو ما جاء فى « الموازنة بين أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى » ، وما جاء فى « الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى » ، وبدأ انفصال النقد عن البلاغة ،

(١) البحث الأدبى ، د / شوقى ضيف ص : ٥٩ ط دار المعارف ، والأدب العربى وتاريخه د / أحمد الحوفى ص ٣ ط دار المعارف .

وتحول النقد إلى علم يعنى بالتقسيمات والتعريفات على يد «أبى هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين» كما يقول ذلك المرحوم : محمد مندور فى النقد المنهجى عند العرب، لكنى لا أرى وجهاً للفصل بين البلاغة والنقد فى أى عصر من عصور الثقافة العربية .

فقد نشأ معاً ، وتطورا معاً ، ويضطلعان بمهمة واحدة ، وهى تقويم الأساليب وتنقيتها على النحو الذى يجعلها مألوفة للأذواق محببة إلى النفوس .

وأغلب الظن أن الحكم السابق بتحول النقد إلى بلاغة قد أخذ به بناء على ما كان معروفاً من وضوح الجانب الأدبى فى آثار البلاغيين والنقاد المتقدمين ، أو من خلال الحكم على تجربة معينة عاشها النقاد مع الأدب الخالص كتجربتى الآمدى والجرجانى .

فلما قل وضوح الأثر الأدبى فى كتب البلاغة ، ولم تعد دراسة البلاغة من خلال تجربة أدبية معينة قيل إن النقد قد تحول إلى بلاغة .

ومما يزيدنى اقتناعاً بعدم الفصل بينهما خلاف ما سبق ، أن عمل الناقد لا يتميز بشىء يجعله يستحق أن يكون عملا آخر غير عمل البلاغى ، ويشهد على ذلك تراث البلاغة فى كل عصورها حتى فى طورها المتأخر الذى تم فيه تقسيمها إلى علومها المعروفة ، فكل مقاييس البلاغة تعد موازين يقوم بها الناقد أى عمل أدبى ، أو تمثل العدة الحقيقية والآلات الرئيسية للناقد ، وكل من البلاغة والنقد يرتبط بميدان واحد وهو الأدب ، ويوم أن يمتزج البلاغيون والنقاد بالمجتمع ، ويحدث تطبيق مقاييس البلاغة وموازينها على أدباء العصر من الشعراء والخطباء والكتاب وغيرهم فستكون هناك مؤلفات فى البلاغة على غرار الموازنه والوساطة .

بل إن من يتأمل مناهج النقد المعروفة : المنهج الفقهى الذى يعتمد على نحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها ، والتاريخى الذى يربط النص وصاحبه بالبيئة والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه ، والنفسى الذى يقوم على الدراسات النفسية التى تكشف الصلة بين النص ونفسية الأديب [1] من يتأمل الدور الذى تقوم به تلك المناهج لا يلوح له أدنى فرق بين البلاغة والنقد ،

فالبلاغة هى : فن القول ، وهى صلة بين المتكلم والمخاطب ، ولا يكون القول معبراً تمام التعبير ، ولا يصادف موقعه من القبول والتقدير ، إلا إذا كانت تلك الصلة على درجة واضحة من الاتصال بما يوقف المتكلم على كل جوانبها حتى يعبر عنها فى كلامه .

وعلى هذا فإن كثيراً من دروس النقد الأدبى الحديث ، يمكن بالتروى ردها إلى أصول بلاغية ونقدية قديمه ، وأن الاختلاف بينها لا يتمثل إلا فى تغيير المسميات ، أو طريقة تناولها .

القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ :

ومعروف أن الوقوف على بلاغة القرآن لإدراك إعجازه من أهم أهداف الدرس البلاغى ولما كانت العلوم السابقة تتصل بالبلاغة وتتعلق بها تأثراً وتأثيراً حيث إنها جميعاً فروع لأسرة واحدة وهى الأسرة اللغوية ويعد القرآن الكريم المعجم التركيبى لألفاظ اللغة العربية الذى حفظها

---

(١) اقرأ عن مناهج النقد : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث مصطفى عبد اللطيف السحرتى ص : ١٤٧ .

ونشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر د . عز الدين الأمين ص ١٤٤ ، ١٤٥ والتراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد د / عبد الحى دياب ص ٧١ - ٧٥ .

من الضياع والتبدد كغيرها من اللغات وضمن لها البقاء والقوة ، ولقد أعجز القرآن العرب بلغته وبلاغته ، ويليه فى البلاغة كلام الرسول ﷺ الذى آتاه الله جوامع الكلم ، وجعله أفصح من نطق بلغة العرب ، لذا كان من المهم والمفيد لكل من يدرس العربية عموماً وبلاغتها على وجه الخصوص أن يكون كثير الرجوع إلى كلام الله وكلام الرسول ﷺ ، ولم ينبغ من دارسى العربية إلا من استمدها من هذا المعجم التركيبى لها ، وكل من استمدها من غيره ، ولم يكن القرآن مصدره الأول فإن استمداده يكون ناقصاً ، وهذا أمر قد اتفق عليه كل من درس العربية قديماً وحديثاً .

الجانب الاجتماعى فى علم اللغة الحديث :

عرفنا فيما تقدم أن علم اللغة الحديث يجعل اللغة بكل فروعها فى خدمة المجتمع ، ولا غرو فإنها الوسيلة الأولى للاتصال وتبادل المنافع بين كل أفراد المجتمع ، بل بين كل أفراد الإنسانية ، كما أنها تربط الحاضر بالماضى وتوصله للمستقبل لذا يرى علم اللغة الحديث ضرورة تفاعل فروعه بالعلوم الاجتماعية تأثرا وتأثيرا بما يجعل اللغة فى خدمة المجتمع ، وقامت لذلك دراسات كثيرة حول اللغة والمجتمع فى العصر الحديث عربية وغير عربية ، ولما كانت البلاغة أحد علوم اللغة ، وتقوم بدراستها من جانب يوضح أهميتها فى الحياة ، وأثرها فى المجتمع فإنا سنوضح العلاقة بينها وبين بعض العلوم الاجتماعية التى يشتد تعلقها بها وأهمها : علم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع .

التاريخ :

وقد نبه البلاغيون المتقدمون إلى أهمية الوقوف على أخبار العرب

وأنسابهم وحوادثهم وقصصهم وأيامهم وحروبهم لذكر الشعراء لها في أشعارهم [1]

لكن المتأمل الدقيق يتبين له أن دراسة التاريخ العام لا غنى عنه لكل دارس ومثقف، ودراسة التاريخ الأدبي لا غنى عنه أيضاً لإفادته في الوقوف على أحوال العلوم وما نالها من تطور على مر التاريخ ؛ ومن خلال معرفة التاريخ الأدبي لتراث الأمة ، وعلى هدى من النظر في المفاهيم العلمية للمادة في مؤلفاتها الممتدة عبر القرون والأجيال يمكن الوقوف على التاريخ الأدبي للمادة الذي يوضح تطورها ، والمشتغلين بها ، وأثرها في حياة الأمة الأدبية والعلمية على مر التاريخ ، ومن ثمت يوقف على علاقة التاريخ بالعلوم على وجه العموم وبعلم البلاغة على وجه مخصوص .

علم النفس :

لا تكون مبالغين إذا ما قرنا أن ما بين البلاغة وعلم النفس ليس مجرد علاقة فإن البلاغي الذي يراعي ملاءمة كلامه لأحوال السامعين لا يفترق عن الطبيب النفسي الذي يريح نفسية مريضه بالعلاج الذي يناسب داءه .

ولا يستطيع المتكلم أن يبلغ بكلامه قرارة السامعين إلا إذا وقف على الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة لهم ، وراعى ذلك في صوغ كلامه على قوالب المقتضيات المناسبة لهذه الأحوال ، لذا كان إلقاء الكلام من غير دراسة لأنفس المخاطبين عي وجهل ، على نحو ما يذكره المرحوم « زكي مبارك » في قوله : « فالبلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس في كل

(١) سر الفصاحة : ابن سنان ص : ٢٨١

الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذى يرمى إليه عند الخطاب »[١]

ومن ينعم النظر والتأمل فى معظم فنون بلاغتنا العربية يتبين علاقتها الواضحة بالنفس بما يؤكد أن البلاغة بحكم موضوعها لا يمكن أن تبعد عن النفس ، ومن أعلام البلاغة المتقدمين من كان يهتم على وجه ظاهر بتسجيل مايحدث للنفس من تأثير وما يعتريها من أحوال فى كثير مما يوضحه من أسرار بلاغية وأدبية وفى مقدمتهم : الرمانى وعبد القاهر والزمخشرى من القدماء وزكى مبارك والرافعى والعقاد وأمين الخولى من المحدثين[٢]

علم الاجتماع :

يشارك علم الاجتماع فى معظم فروع اللغة : أصواتها ولهجاتها وأدبها وبلاغتها وغيرها ، وأضحى من فروع علـم الاجتماع مايختص بدراسة الظواهر اللغوية من الناحية الاجتماعية فيما يعرف : بعلم الاجتماع اللغوى .

وعلاقته بالبلاغة وهى أحد علوم اللغة لاتخفى ، فلايتمكن البليغ من توفية التعبير حقه من تمام ملاءمته لأحوال المخاطبين إلا إذا أحاط علما بجميع الظروف التى يتأثرون بها وتشكل أمزجتهم واتجاهاتهم ، وأهمها : تحديد البيئة التى يسكنونها ، وحالة المناخ السائد فيها ، ونوع المهنة التى

---

(١) النثر الفنى : د/ زكى مبارك ٢ /٥٢ ط أولى ودفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات ٣٧- ٥٤ ط ثانية

(٢) انظر : أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية دكامل الخولى ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ط أولى ، ومن الوجهة النفسية ص : ٢٠ والبحث البلاغى فى تفسير الكشاف د محمد أبو موسى .

يشتغلون بها ، وأحوالهم المعيشية ، والسياسة التي يخضعون لها ، والمذاهب التى يعتقونها ، وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية التى تؤثر فى أجسام الناس وعقولهم ، والوقوف عليها مهم للبليغ شاعرا أو كاتبا أو مدرسا أو واعظا ليجىء كلامه ملائما تماما لأقدارهم ، ومتفقا تمام الاتفاق مع أحوالهم .

ولذا فإن لكل بيئة من البيئات ، أو مجتمع من المجتمعات ، أو طائفة من الناس لونا من الكلام ، وسبيلا من الأسلوب يصلح لها ولا يصلح لغيرها .

فللفلاح طريقة من الكلام تختص به ، وللعامل أسلوب يوافقه ، والكلام فى الريف يختلف عنه فى المدينة ، والحديث مع وجهاء الناس يختلف عن الحديث مع عوامهم .

وهكذا لكل جماعة من الناس لون من الكلام يتناسب معها ولا يتناسب مع غيرها .

وكثير ممن يوفقون فى أعمالهم المتعلقة بصنعة الكلام هم الذين يراعون هذه الفروق . مما يؤكد أن البلاغة وراء النجاح فى الحياة .

ولم يغب عن بال البلاغيين والنقاد أثر هذه الظواهر الاجتماعية فى بلاغة الكلام ، فالقاضى الجرجانى يرد اختلاف أحوال الشعراء من رقة أو صلابة ومن سهولة أو وعورة إلى اختلاف الطبائع وتركيب الخلق[1] وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع يتحدث فى مقدمته عن أثر الهواء فى أخلاق البشر ، وعن اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم[2] .

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه : القاضى الجرجانى ص : ١٧ — ٢٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ص : ٦٥ ، ٦٦

وتبدو أهمية الدراسات الاجتماعية ، والوقوف على الظروف الاجتماعية للمتكلمين كذلك ، إذ بالوقوف عليها نتمكن من رد الأساليب لأصحابها الحقيقيين ، لما هو معروف من أن الأساليب تحمل فكر أصحابها وتعبر عن أمزجتهم ومظاهر شخصيتهم ، وبذلك يمكن المحافظة على آثار الأدباء والمفكرين ، وعدم اختلاطها ببعضها ، وتبين الأصيل من المنحول ، وبهذه الطريقة أثبت « ابن أبي الحديد » في شرحه على نهج البلاغة ، أنه من كلام الإمام علي كرم الله وجهه وليس موضوعا عليه(١) .

ومضى في أثره كثير ممن جاءوا بعده ، واهتموا بالدفاع عن : « نهج البلاغة »(٢) .

وهي الطريقة التي أثبت بها الرافعي مخالفة أسلوب القرآن لكل المعهود من أساليب العرب ، لخلوه من أدنى آثار الروح الإنسانية ، وكل الظواهر الاجتماعية التي تحكيها أساليب البشر(٣) .

فتلك أهم العلوم التي ينتفع بها دارس البلاغة ، والتي ينبغي أن يوضح ما لها من علاقة بالبلاغة في درس مبسوط يكون مدخلا لدراستها ، إذ لا تشير إلى ذلك المناهج المتبعة الآن في تدريس البلاغة .

ولا يوجد من كتب البلاغة ما يوضح تلك العلاقة على هذا الوجه .

لكن ليست هي كل العلوم التي تفيد دارس البلاغه ، إذ أن كل ألوان الثقافة وجميع صنوف المعارف مفيدة وهامة لدارس البلاغه ، حتى معرفة ما يقوله المنادي على السلعة في السوق ترويجا لها ، لأنه مؤهل لأن يهيم في كل

( ) شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد ٤٥٧/٣ ط بيروت .

(٢) أنظر : مدارك نهج البلاغة : الهادي كاشف الغطاء ص : ٢٠٢ ط بيروت ومع الامام علي من خلال « نهج البلاغة » خليل الهنداوي ص : ٢٠٨ ط بيروت ، والنبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص : ٩٢ - ٩٣

(٣) إعجاز القرآن للرافعي ص : ١٨٢ - ١٨٣

واد ، ويخوض فى كل سبيل ليقتضيه أن يتعلق بكل فن كما ذكر ابن الأثير[1] ،

منزلة البلاغة من العلوم :

وإذا كان لكل علم مكانته المحددة ، ومنزلته التى تليق به بين العلوم على ضوء مايقدمه من فوائد للثقافة الإنسانية ، فإن علم البلاغة يعد من أجل العلوم وأشرفها لما يترتب على الوقوف عليه من القدرة على المفاضلة بين الأساليب لمعرفة الجيد منها والردىء ، وتنمية حاسة التذوق والنقد ، وغير ذلك من الفوائد التى جعلت أبا هلال العسكرى يرى أن العلم به أصل فى التمييز بين العالم والجاهل من الناس[2] .

وإذا كان كل علم يشرف بشرف مقصده ، ويسمو بسمو غاياته فإن علم البلاغة يعد من أجل العلوم قدرا وأدقها سرا ، حيث يعرف بهدقائق العربية وأسرارها ويكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن استارها كما ذكر الخطيب القزوينى[3].

---

(١) المثل السائر : ابن الأثير ٧٣/١ ،
(٢) الصناعتين : أبو هلال العسكرى ص : ٣
(٣) المطول : سعد الدين التفتازانى ص : ٩

الفصل الثالث

الفصـاحة

يتناول هذا الفصل النقاط التالية :

١ — مقدمة البلاغة و براعة الاستهلال .

٢ — جمال الشكل وروعة المضمون .

٣ — عزل الفصاحة عن البلاغة .

٤ — الفصاحة بين ابن سنان الخفاجى و المتأخرين .

٥ — شواهد الفصاحة بين المتقدمين والمتأخرين ،

٦ — تصوير المعنويات

٧ — عيوب الفصاحة

٨ — فصاحة الكلمة .

التنافر — البلاغيون المتأخرون يقعون فى الحرج

الغرابة — الغريب ليس عيبا فى كل الأحوال

غريب القرآن

مخالفة القياس

٩ — فصاحة الكلام

ضعف التأليف والتعقيد اللفظى .

— التعقيد المعنوى

١٠ — فصاحة المتكلم .

مقدمة البلاغة وبراعة الاستهلال

من مظاهر الجمال عامة أن يعنى بمطالع الأعمال . وأن يهتم بمقدماتها وأن يضاف إليها من صنوف الزخرف والتزيين ، وألوان الفن والتحسين مايجعلها آية فى الحسن ، ومثلا فى الابداع ، يستهوى الناظرين ، وتجذب المشاهدين ، وتغريهم بالوقوف والتأمل لاستملاء ماتحوى من محاسن واستجلاء ماتضم من روائع .

ولئن كان الاهتمام بالمطلع أمرا هاما بالنسبة لكل الأعمال المادى منها والأدبى ، فإنه بخصوص صنعة الأدب وفن القول يعد أكثر أهمية وأشد ضرورة .

لذا كان من أول ماينبغى مراعاته فى مطلع القصائد والمقالات ومفتتح الخطب والمساجلات أن يتوافر لها من عناصر الإثارة والتشويق وعوامل الجذب والاغراء مايجعلها تقرع الاسماع ، وتبهر المشاعر ، وتستحوذ على العقول ، وتجذب الحواس إلى متابعتها بوعى وتأمل واهتمام وتدبر ،ويعرف هذا فى البلاغة ببراعة الاستهلال .

ومع هذا فإن البلاغة المتأخرة لايتوافر لها المطلع المشوق والمدخل المغرى أى أنها خيالية من براعة الاستهلال .

وذلك يعد فى نظرى من أبرز الأسباب وأهمها وراء انصراف كثير من محبى العربية عن دراسه البلاغة ، وحكم عدد من الباحثين والمؤلفين عليها بأحكام تختلف صيغها ويتفق مضمونها مثل : العقم والجفاف والجمود والعزلة وغيرها .

فمقدمة البلاغه المتأخرة لاتؤدى الغرض الذى ينبغى أن تؤديه مقدمة

أى عمل من الأعمال كما ذكرنا ، إذ لا يوجد فيها مايشوق إلى دراسة البلاغة ، ولا مايبين مقدار أهميتها بالنسبة للحياة والمجتمع ، ولا مايغرى الدارسين بالتعمق فى أبحاثها ، والاستزادة من دروسها ، بل فيها مايعد نقيضا لذلك : مصطلحات تبعد ولاتقرب ، وشواهد صعبة شاذة تنفر ولا تحبب ، وغير ذلك مما يعيق الدارس عن فهم موضوعها ، وتبين أهميتها .

إذ تدور مقدمة البلاغة المتأخرة كما يعرف حول تحديد معنى الفصاحة ومعنى البلاغة وما بينها من علاقة وارتباط فهل حققت ذلك الهدف الذى وضعت له ؟

أو هل يستطيع دارس البلاغة بعد أن ينتهى من معرفة كل ماتتناوله تلك المقدمة أن يحدد موضوع كل من الفصاحة والبلاغة بالنسبة للأساليب العربية ، وما بينهما من تعلق وارتباط ؟ والفصاحة فى مجمل أمرها تعنى توفير الجمال الشكلى للأسلوب ، بالنسبة للحرف فى الكلمة وللكلمة فى الجملة ، وللجمل فى التركيب ، بينما تعنى البلاغه بتوضيح الأسس وتحديد القواعد التى يكون بها الكلام الفصيح مطابقا لمقتضى حال المخاطبين .

فهاتان تعدان النقطتين الأساسيتين اللتين تدور حولهما مقـــدمة البلاغة .

وكان واجبا أن يتوجه الاهتمام الزائد لتوضيحهما وإبرازهما ، لكنا نرى الاهتمام يتمثل فى تحديد الفرق بين الفصاحة والبلاغة من الناحية الشكلية ، وأن الفصاحة توصف بها الكلمة والكلام والمتكلم فيقال : كلمة فصيحة ، وقصيدة فصيحة ، وشاعر فصيح بينما يوصف بالبلاغة الكلام والمتكلم فقط فيقـــال : خطبة بليغة وخطيب بليغ ، ولايقال . كلمة بليغة .

وكان من نتيجة جعل هذه التفرقة بين الفصاحة والبلاغة الهدف الأساسي والموضوع الرئيسي أن قر في أذهان كثير من الدارسين أن الفصاحة شيء والبلاغة شيء آخر على الرغم من وضوح أن الفصاحة جزء من البلاغة، وسار في هذا المضمار بعض من ألفوا في البلاغة، فشغلوا أنفسهم بتحديد موقف الخطيب القزويني من الفصاحة والبلاغة أفرق بينهما أم جعلهما شيئاً واحداً(١).

وكلام الخطيب القزويني واضح في تحديد العلاقة بين الفصاحة والبلاغة بما يعني أن الفصاحة جزء من البلاغة، وأن البلاغه أمر كلي تهتم بتوفير القبول للأسلوب من كل الجوانب، فهي تشمل الفصاحة، وذلك في قوله: وقد علم بما ذكرناه أمران:

احدهما: أن كل بليغ فصيح ولا عكس.

الثاني: أن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره(٢).

فكلام الخطيب كما ترى واضح بأن الفصاحة جزء من البلاغة، لكنه لما أخذ يفرق بينهما من الناحية الشكلية من جهة ما يقعان وصفا له، وأن الفصاحة تقع وصفا للكلمة والكلام والمتكلم والبلاغة تقع وصفا للكلام والمتكلم فقط: كانت هذه التفرقة الشكلية بينهما سببا لفهم كثير من الدارسين أنهما متغايران،

وإذا كانت الفصاحة يعني بها الظهور والبيان، فهل يؤدي تفسير

---

(١) انظر: الصور البيانية بين النظرية والتطبيق د: حفني شرف ص: ١٨، ١٩.

(٢) بغية الايضاح: عبد المتعال الصعيدي ٣١/١

المتأخرين لها إلى مايطبعها بهذا الطابع فى ذهن الدارسين أى طابع الوضوح والبيان الذى يشير إليه اسمها ؟

ظاهرة ثانية وتساؤل آخر يتعلق بقضية الفصاحة ، وغموض مقدمة البلاغة .

لقد ذكر المتأخرون مجموعة من العيوب التى تخل بفصاحة الكلمة والكلام تحت ألقاب منفرة وصادة ، منها تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى ـ كعيوب تخل بفصاحة الكلمة ـ وتنافر الكلمات وضعف التأليف ، والتعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى ـ كعيوب تخل بفصاحه الكلام ـ وذلك من خلال شواهد جافة وشاذة وصعبه كانت هى الأخرى أشد تنفيرا وأكثر صدودا ، فجعلت كثيرا من الدارسين يظنون أن ميدان البحث البلاغى يتمثل فى تحديد ومرد هذه العيوب المنفرة ، وتعقب تلك النماذج السقيمة ، بل رأى أحد الباحثين أن كليات اللغة العربيه لاتدرس لطلابها اللغة العربية وإنما تدرس لهم شواذها[1] .

— فالاهتمام بالتفرقة بين الفصاحة والبلاغة من الناحية الشكلية على الرغم من أنهما متلازمان أوهم أن الفصاحة شىء والبلاغة شىء آخر .

— والاقتصار فى شرح مفهوم الفصاحة بالنسبة للكلمة والكلام على سرد العيوب ، بألقاب غير مرغبة ، ومن خلال شواهد يصعب نطقها ، دون ذكر لبعض النماذج الحسنة الخالية من العيوب غرس فى الأذهان كذلك أن ذلك ميدان البلاغة ومجال بحثها .

---

(١) وهو الأستاذ الدكتور : أحمد شلبى الأستاذ بكلية دار العلوم ـ فى حديث له فى الإذاعة المرئية .

فتكاتف هذان السببان فى نظرنا ليحولا دون تحقيق مقدمة البلاغة الهدف منها .

لذا كان من أهم أسس التجديد لدرس البلاغة ، تحديد مقدمة البلاغة تحديدا ينبىء عن أهدافها ، وتطويرها تطويرا يوضح أهميتها للحياة ، وأثرها فى المجتمع ، بتناولها تناولا جذابا وعرضها عرضا مشوقا ، يستبعد منها ماهو منفر ويبقى على ماهو مرغب ومحبب .

وعلى النهج الذى رأيناه سديدا فى تحديد البلاغة ، وهو تجديد البلاغة بالبلاغة ، فإننا سنطيل النظر التأمل فى التراث البلاغى المتقدم لنكشف أساليب جديدة ، ونبحث عن صيغ معبرة تصلح أن تجعل مقدمة للدرس البلاغى الحديث .

جمال الشكل وروعة المضمون :

ينبغى أن يهتم فى مقدمة البلاغة بتوضيح مفهومها على سبيل العموم وعلاقة الفصاحة بها على وجه مخصوص ، وماذكره الخطيب القزوينى من من قوله السابق حول تحديد هذه العلاقة من أن كل كلام بليغ فصيح ؛ وليس كل كلام فصيح يعد بليغا لا يكتفى به فى مجال تحديد علاقة الفصاحة بالبلاغة ، فضلا عن أنه قضية منطقية تحتاج إلى شرح وتفسير ، وغير هذا فإن الاهتمام بمعرفة ماتقع الفصاحة وصفا له من الكلمة والكلام والمتكلم وماتقع البلاغة وصفا له وهو الكلام والمتكلم فقط جعل الدارس يمر به ويقف عليه ولا يتمكن فى النهاية من تحديد علاقة الفصاحة بالبلاغة .

والفصاحة كما ذكرنا فى عموم أمرها تعنى : جمال الشكل ، وحسن اللفظ وذلك ماينبغى الاهتمام به مجال الحديث عن الفصاحة ، وهو ماقرره معظم البلاغيين من أن البلاغة تتمثل فى : حسن الصياغة وروعة المضمون ، وقرره

كذلك أهل الحرف والصناعات الأخرى غير صنعة الأدب : كالجوهرى فى قوله : أحسن الكلام نظاما ما وصل جوهر معانيه فى سموط ألفاظه[1] ، والعطار فى قوله : أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ، والنجار فى قوله : أحسن الكلام ما لطفت رفارف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه والحائك فى قوله : أحسن الكلام ما اتصلت لحمة ألفاظه بسدى معانيه والبزاز فى قوله : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه[2]

فمعظم ما ذكره البلاغيون والأدباء وأهل الحرف والصناعات عن البلاغة يدور حول أنها : معنى لطيف فى لفظ شريف على نحو تعريف أبى هلال العسكرى لها بأنها : كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن .[3]

فجمال الشكل ، وروعة الصورة ، التى تدور حولها موضوع الفصاحة لا تعبر عنها مقدمة البلاغة المتأخرة ، التى اهتمت بأمور فرعية ، ومناقشات ثانوية ، غاب الهدف الأساسى ، وتاه الغرض الأصيل فى غمارها.

عزل الفصاحة عن البلاغة :

وعلى الرغم من الارتباط التام بين الفصاحة والبلاغة ، ارتباط الجزء بالكل ، فإن الأسلوب الذى تناول به المتأخرون قضية الفصاحة أوهم أنها شىء آخر غير البلاغة ، وأظهرها فى صورة الغريب عنها ، مما يجعلنا نرى أن الفصاحة ينبغى أن تناقش دائما فى نطاق البلاغة وألا تخرج عن دائرتها ، وأن تكون فى كل الأحوال وفى جميع الأوقات مرتبطة بها ارتباط الفرع

(١) السموط : خيط النظم ، وجمعه سموط .
(٢) انظر : زهر الآداب للحصرى ١ - ١١٤ ، ١١٥ ط أولى تحقيق: على البجاوى
(٣) الصناعتين : أبو هلال العسكرى ص : ٦

بالأصل والجزء بالكل ، فلا تبدو آنذاك معزولة عن البلاغة ، أو بعيدة عنها وكان ذلك نهج تحدث المتقدمين فى كل ما ورد عنهم من كلام يتعلق بالفصاحة فالقاضى عبد الجبار تحدث عن فصاحة الكلمة والكلام ، وحديثه فى ذلك لم يكن ككلام المتأخرين ، بل قيد وصف الكلمة أو الكلام بالفصاحة بحسن الموقع من التركيب وجمال التعلق بالأسلوب ، وروعة الارتباط بنظم الكلام ، ويوضح ذلك قوله : « وأعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة » (١)

فلا يمنع أن يكون للألفاظ صفات تختص بها ، بل يشترط ضرورة وجود هذه الصفات وفى الوقت نفسه فإنه يرى أن هذه الصفات لا يظهر حسنها إلا بمصادفة الكلمة موقعها من الأسلوب، وبمقدار تمكنها من التركيب أى إنه ربط الفصاحة بالبلاغة .

ومضى على هذا النهج « عبد القاهر » مطورا للكلام السابق ومتعمقا فيه ومتوسعا بما تجلى أثره فى « نظرية النظم » التى تزن جزئيات التركيب وتحكم عليها على ضوء حسن تعلقها بالأسلوب وروعة ارتباطها بما قبلها وما بعدها ولا ينكر عبد القاهر وصف الكلمات المفردة بالحسن ، ولكنه كعبد الجبار يربط جمال الألفاظ بالتركيب كله ، فبدا كل كلام له عن الفصاحة متعلقا بالنظم ومرتبطا بالبلاغة .

ومن أقواله التى يتضح فيها ذلك قوله : « وهل يقع فى وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة

---

(١) المغنى : القاضى عبد الجبار تحقيق أمين الخولى ١٦ - ١٩٩

وحشية أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ومما يكد اللسان أبعد»[1].

فيفيد كلام «عبد القاهر» أنه لا ينكر وصف اللفظة المفردة بالفصاحة لذاتها بل ينبغي أن يضاف إلى ذلك مصادفتها الموقع الملائم، وقرارها في موضعها المناسب من التركيب.

وكذا ترتبط الفصاحة بالبلاغة ارتباط الفرع بأصله والجزء بكله على نحو ما ذكر «عبد الجبار» و «عبد القاهر» من بعده، والخطابي قبلهما في قوله: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم — ورباط لهما ناظم[2]

فالاهتمام في مقدمة البلاغة بتوضيح مفهوم الفصاحة من خلال تعلقها بالبلاغة على النهج السالف يعد أجدى وأنفع من إضاعة الوقت والجهد في تحديد الفرق بينهما من الناحية الشكلية على الوجه الذى ظهرت عليه الفصاحة وكأنها غير البلاغة وما كان بعده من اهتمام الباحثين والمؤلفين به فلا يشك في أن الإسراف في تحديد الفروق بين الفصاحة والبلاغة على النحو السالف لا يعود على الدرس البلاغي بفائدة ترجى:

ولذا فقد كان «عبد القاهر» سديد الرأى حين لم يلتفت طويلا لذلك، واعتبر البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وما شاكل ذلك من كل ما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض ألفاظاً مترادفة على معنى واحد[3].

فلا يهم دارس البلاغة أن يعرف إن كانت الفصاحة مرادفة البلاغة كما

---

(١) دلائل الإعجاز: عبد القاهر ص: ٤٠
(٢) بيان إعجاز القرآن: الخطابي ص: ٢٧
(٣) دلائل الإعجاز: عبدالقاهر ص: ٣٩، ٤٢

أعتبرها عبد القاهر وغيره من البلاغيين واللغويين[1] أو جزءا منها وشطرا لها كما اعتبرها الخطيب القزويني وغيره بقدر ما يهمه أن يقف على موضوعها وصلتها بالبلاغة بأسلوب يجعلها محببة للدارسين .

الفصاحة بين ابن سنان الخفاجي والمتأخرين :

ولما كان هناك شيء من التشابه بين منهج ابن سنان الخفاجي ومنهج البلاغيين المتأخرين في بعض الأمور التي تتعلق بالفصاحة ، وأبرزها : ما يضعه من شروط لفصاحة اللفظة المفردة ، وشروط غيرها لفصاحة الألفاظ المركبة ، وتسمية الكتاب بسر الفصاحة ، فقد رأى كثير من الدارسين المعاصرين ، والمؤلفين المحدثين أن مقدمة البلاغة المتأخرة جاءت على نهج ابن سنان ، وجاء ما فيها متقاربا إلى مدى بعيد مع كلامه عن الفصاحة وأن المتأخرين في اهتمامهم بالتفرقة بين الفصاحة والبلاغة إنما كانوا يصنعون ما صنعه ابن سنان الخفاجي [2]

لكنا نرى أن الفصاحة في مقدمة البلاغيين المتأخرين يختلف الحديث عنها تماما عن كلام ابن سنان عليها في « سر الفصاحة » .

فالفصاحة في نظر ابن سنان ترادف البلاغة ، مما يجعله يضعها عنوانا لكتابه ، وقد نبه على ذلك في مقدمة الكتاب بقوله : « اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة ، والعلم بسرها ، فمن الواجب أن يبين ثمرة

---

(١) يقول ابن منظور للذى فسر البلاغة بالفصاحة : « والبلاغة الفصاحة ... ورجل بليغ .. حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه «لسان العرب ١٠ : ٣٠١ مادة : بلغ ط الدار المصرية للتأليف والنشر .

(٢) انظر : الصور البيانية بين النظرية والتطبيق د . حفنى شرف ص : ٣٦، ٣٧ والبيان العربي د . بدوى طبانة ص : ١٩٣ والبلاغة تطور تاريخ د. شوقي ضيف = ص ١٥٣ ومن والأدب د أحمد أحمد بدوى ص ١٦١، وابن سنان الخفاجي ومنهجه في النقد والبلاغة . د . عبد الحميد العيسى ص ١٦٤

ذلك وفائدته ؛ لتقع الرغبة فيه»(١)

وما ورد له من كلام عن فصاحة اللفظة المفردة أو الألفاظ المركبة لم يكن مقطوعا عن البلاغة أو معزولا عنها ، كما حدث ذلك فى نهج المتأخرين بل إنه ذكر ضمن فصاحة الكلام أمورا كثيرة هى من وجوه البلاغة فى عرف المتأخرين ، فهو يستعمل الفصاحة فى موطن البلاغة، ولا يفرق بينهما إلا حين يتحدث عن صفات الكلام من ناحية شكله ، أو من ناحية مضمونه فيطلق على الأول الفصاحة وعلى الثانى البلاغة ، واعترف هو بذلك فى قوله «وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها ، فكلامى على المقصود وهو الفصاحة غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ،فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص ، وخليط لا ينقسم»(٢)

وجاء تطبيقه مؤكدا أن الفصاحة والبلاغة أمر واحد كما اعتبرهما «عبد القاهر» فالذين أتعبوا أنفسهم وشغلوا بالهم بأن ابن سنان قد فرق بين الفصاحة والبلاغه ، وعابوه لذلك تكلفوا مالا يطيقون .

وكيف يستساغ القول بأن مقدمة البلاغة المتأخرة متقاربة تماما مع تجربة ابن سنان ، وتجربة ابن سنان كما نعيش معها فى «سر الفصاحة» تجربة منظمه متكاملة ، تجمع بين المنهج العلمى ، والطابع الأدبى ، إذ بدأ حديثه بالأصوات ، فالحروف ، فالكلمة المفردة، فالكلمات المركبه، ثم الأسلوب أو التعبير ، وهو فى كل ما يتناوله بالمناقشة من هذه الأمور ، يربطه بالبلاغة ويسوق من الشواهد والنماذج منثورها ومنظومها مايقرر كلامه ، معقبا عليها بما يتراءى له منها ، لستحسانا واستهجانا ، مما يجعل الدارس يعيش مع تجربة

(١) سر الفصاحة ص٣ .

(٢) المرجع السابق ص : ٥٠ ، ٥١

لغوية منظمة يلتقى فيها باللغة وفروعها من نحو وصرف وأدب وعروض وبلاغة وغيرها .

فنرى من ذلك أن تجربة بن سنان تعد فى مقدمة التجارب البلاغية المنظمة ، وأن أثرها فى صنع المتأخرين لا يتعدى الاتفاق فى بعض العناوين كفصاحة اللفظ المفرد ، والألفاظ المركبة ، أما روح التجربة وجوهرها ، وهو كونها بناء متكاملا تتعانق فيه الفصاحة مع البلاغة على نهج علمى ، وبروح أدبية نقدية ، فليس له وجود فى صنع المتأخرين مما يجعلنا نرى أن النهجين مختلفان تماماً ، وكم كنا نود لو نقل المتأخرون تجربة بن سنان كاملة ، ونود كذلك لو انتفع الدرس البلاغى الحديث بتجربة بن سنان إذا لحقق كثيرا من أهدافه .

ولا غرو بعد ذلك أن نرى ضياء الدين بن الأثير فى مقدمة كتابه : « المثل السائر » يشيد بكتاب « سر الفصاحة » ويعده مع كتاب « الموازنة » لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى من أعظم الكتب التى أفاد منها وانتفع بها وذلك فى قوله : « وقد ألف الناس فيه كتبا ، وجلبوا ذهبا وحطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب : « الموازنة » لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى »[1]

فإذا ما كان هناك من أثر واضح لابن سنان فيمن جاء بعده ، فإن هذا الأثر يبدو ظاهرا فى « المثل السائر » ، وإن كنا لا نوافق ابن الأثير فيما يعده على ابن سنان من إطالة الوقوف عند الأصوات وإطنابه فى الحديث عنها ، فالأصوات والحروف كما ذكرنا من قبل تعتبر اللبنة الأولى للأسلوب ، فمن

---

(١) المثل السائر: ابن الأثير ١: ٢٣٥، ٢٣٦

الضروري أن تنال حظها الوافر من الدرس والبحث ، وهذا ما فعله بن سنان ، وقد تابعه بن الأثير في كثير من كلامه عن الأصوات والحروف على الرغم من نقده له .

وخلاصة ما نذكره في هذا الموطن الذي نعمل فيه على تصحيح العلاقة بين ابن سنان الخفاجي والبلاغيين المتأخرين أن بن سنان الخفاجي ترك أثرا فيمن جاء بعده من البلاغيين ، وكان بن الأثير أكثرهم تأثرا به وتأثر به المتأخرون في بعض كلامهم عن فصاحة اللفظة المفردة وفصاحة الألفاظ المركبة ، لكن لم تكن مقدمة البلاغة المتأخرة صورة مماثلة لكلام ابن سنان عن الفصاحة كما رأى ذلك بعض المحدثين ، إذ يختلف منهج التناول تماما بين ابن سنان والمتأخرين ، فابن سنان يتناول الأصوات والحروف كأساس لتجربته ، فيتناولها المتأخرون تناولا يعزلها عن البلاغة ، ويجعل دارس البلاغة يمر بها دون أن يفطن لوجه تعلقها بالبلاغة .

وكان ابن سنان واضحا في تقسيماته ، منهجيا في تناوله ، موضوعياً في تطبيقه . فأفسد المتأخرون ذلك النهج السديد بالاختصار المخل وكثرة التفريعات ، وغموض المصطلحات .

وطبق ابن سنان آراءه في البلاغة واتجاهاته في النقد على أدباء عصره قدر ما أمكنه ، مقدما شواهد محمودة خالية من النقد ، وأخرى معيبة مبديا في كل رايه بالاستحسان أو الاستهجان ، فامتزجت البلاغة بالأدب والنقد في تناوله ، بينما عاش المتأخرون على آثار السابقين ، مستشهدين في معظم كلامهم بشواهد معيبة ، فبدت البلاغة على نهجهم معزولة عن الحياة ، ومنفصلة عن الأدب والنقد .

وكثيراً ما رأينا ابن سنان يستعين على توضيح ما يقرره من معان

بعض صور الحياة : فيبدو كلامه قريبا غير بعيد .

وإذا كانت شواهد المتأخرين قليلة وقديمة فكانت شواهد ابن سنان كثيرة وجديدة .

فذلك يعد كافيا فى تقرير ما ذكرته من أن مقدمة البلاغة المتأخرة تختلف اختلافا بينا عن قضية الفصاحة لدى ابن سنان الخفاجى .

شواهد الفصاحة بين المتقدمين والمتأخرين :

ذكرنا أن من أبرز ما عكر صفو البلاغة المتأخرة ، أنها اقتصرت فى أكثر الأحيان على سرد الشواهد المعيبة التى خرجت عن دائرة الفصاحة لا شتمالها على أحد العيوب المخلة بفصاحة الكلمة أو الكلام ، ولما كانت تلك الشواهد مثلا بالغا فى الثقل والصعوبة والركاكة أوهم هذا أن ذلك مجال بحث البلاغة ، مما كان له أثره السيء فى انصراف الدارسين عنها ، وحكم عدد من الباحثين عليها بالعقم والجفاف والجمود وغيرها ، ونطالع مؤلفات المتقدمين فنجدها لا تعرض المعيب فقط من الشواهد ، بل تذكر مع الشواهد الركيكة ، الشواهد الفصيحة البليغة ، فندرس البلاغة مع الأدب والنقد .

فعبد القاهر حين يجمل حسن الألفاظ فى إحكام التناسب بين ما قبلها وما بعدها ، وتمكن موقعها من نظم الكلام وليس لها مقطوعة عن التركيب يعرض نموذجين ، وقعت إحدى الألفاظ فى أحدهما موقعا حسنا فجاءت فصيحة غير معيبة ، بينما وقعت فى نص آخر موقعا غير سديد فجاءت مستكرهة غير مقبولة ، كلفظ الأخدع التى جاءت حسنة فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتاو أخدعا

والبحترى :

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى　　　وأعتقت من رق المطامع أخدعى

بينما جاءت ثقيلة نافرة فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقد　　　أضججت هذا الأنام من خرقك[١]

ويخلص عبد القاهر من تلك الموازنة بين ورود اللفظة الواحدة مقبولة فى موضع وغير مقبولة فى موضع آخر بأن الكلمة لو كانت إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبدا[٢]

كما تؤكد تلك الموازنة لعبد القاهر : اتصال الحديث عن الفصاحة بأصلها وهو البلاغة ، وامتزاج البلاغة بالنقد ؛ وعدم التنفير من دراسة البلاغة بعرض الشواهد المحمودة والمذمومة لا المذمومة فحسب .

وعلى ذلك النحو كان ابن سنان يستشهد فى معظم الأحيان بشواهد من اللونين على نهج عبد القاهر أى فى : ربط الفصاحة بالبلاغة ، ووضوح الروح الأدبية والنقدية ، من ذلك جعله استخدام الكناية حيث لا يحسن التصريح أصلا من أصول الفصاحة ، وشرطا من شروط البلاغة ، وتمثيله للكنايات الحسنة التى جاءت فى موضعها فكانت أبلغ من التصريح بقول امرىء القيس :

---

(١) الخرق : العنف ، وضم الراء لضرورة الشعر وتقويم الأخدعين : ازالة الكبر والعنف .

(٢) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ص : ٤٢ — ٤٤ .

فصرنا إلى الحسنى ودق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى إذلال

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة ، وكقول أبى الطيب المتنبى :

تدعى ما ادعيت من ألم الشو ق إليها والشوق حيث النحول

لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية وهو عدم ضمور جسمها وتمثيله للكنايات المعيبة بقول أبى الطيب :

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها

وقول الآخر :

تعطين من رجليك ما تعطى الأكف من الرغاب

لأنهما عبرا عما لا يجب أن يكنى عنه، فأتيا بألفاظ يجب أن يكنى عنها (١) فتوضح تلك الموازنة لابن سنان ما سبق أن ذكرنا عنه من أنه :

لا يفرق بين الفصاحة والبلاغة ، إذ اعتبر حسن الكناية أصلا للفصاحة مع وضوح الجانب الأدبى والنقدى ، وعرضه نماذج متنوعة لكلا اللونين وتعليقه عليها بالاستحسان أو بالاستهجان :

على هذا النهج ينبغى ألا يكتفى بما ذكره المتأخرون من الشواهد المعيبة ، بل تذكر المساوىء مع المحاسن ، والشواهد المذمومة مع الشواهد المقبولة .

---

(١) سرا الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص : ١٥٥ — ١٥٨ والرغاب : الأرض اللينة الواسعة يكنى بهذا عن امتلاء رجليها ولينهما .

تصوير المعنويات :

وقد ذكرت فيما عرضته من اقتراحات لتجديد البلاغة وربطها بالمجتمع فى موطن آخر من هذا البحث : الاستعانة بصور الحياة المادية ومظاهرها الحسية المشهورة والمعروفة لتوضيح الأمور المعنوية ليسهل فهمها ، وذلك ينبغى أن يوجد بصفة واضحة فى مقدمة البلاغة لشرح موضوعها ، وتحديد أهدافها ، ولئن افتقدنا ذلك فى النهج البلاغى المتأخر فإنا نجده فى مؤلفات البلاغيين المتقدمين ، فابن سنان الخفاجى يرى أن صنعة الكلام كجميع الصناعات يتأتى كمالها بخمسة أشياء : الموضوع وهو الكلام المؤلف من الأصوات ، والصانع وهو مؤلف الكلام شعرا أو نثرا والصورة وهى الفصل للكاتب والبيت للشاعر وماجرى مجراهما ، والآلة ، وهى طبع المؤلف والعلوم التى اكتسبها ، والغرض وهو بحسب الكلام المؤلف[1] .

وتبرز تلك الطريقة بصورة أكثر وضوحا لدى عبد القاهر الذى يمثل كثيرا لكلامه بصور النقش والبناء والتزيين والصوغ وغيرها كتصويره حسن الألفاظ فى موافقتها لمعانى النحو وتمكنها من نظم الكلام بحسن الذهب والفضة إذا أجيد تصويرهما وأحكم تشكيلهما[2] .

وكان ابن الأثير أيضا كثيرا مايربط بين الفصاحة والبلاغة بما يحدد موضوع كل منهما على ضوء صور الحياة ومشاهدها ، وتبعه يحيى العلوى فى ذلك ، فقد جعلا الفصاحة والبلاغة فى ثلاثة أمور :

أولها : اختيار الألفاظ المفردة كاختيار اللآلىء المتفرقة قبل النظم .

---

(١) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص : ٨٢ — ٨٤

(٢) دلائل الاعجاز : عبد القاهر ص : ٣١٢

وثانيهما : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ، كاقتران كل لؤلؤة في العقد بما يماثلها . وهذان هما موضوع الفصاحة .

وثالثهما : وهو موضوع البلاغة . الغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه ، كوضع العقد في المكان الذي يناسبه ويحسن فيه على الرأس أو حول العنق ، أو في الأذن[1] .

فترى أن الاستعانة بصور الحياة المادية ومظاهرها المألوفة يعين إلى مدى بعيد في توضيح مفهوم كل من الفصاحة والبلاغة .

وكان ذلك وراء تمكن المرحوم / محمد عبد الله دراز من التفرقة بين كلام الله وكلام البشر على وجه لا يبقى معه أدنى شك في سمو أسلوب القرآن على أساليب العرب ، وعلى منوال لم يضارعه فيه إلا المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، فماذا صنع الدكتور / محمد عبد الله دراز ؟

لقد ذكر أن القرآن حقاً لم يخرج عن سنن العرب في كلامهم إفراداً وتركيباً ، وأن صنعة البيان كصنعة البنيان ، فكما تتفاوت صنعة البنيان في أمور كثيرة ، كاختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء وغير ذلك من وجوه الزينة والزخرف التي تؤدي إلى تفوق بناء على بناء كذلك تتفاوت صنعة البيان من جهة استعمال ألفاظ اللغة في أماكنها المتناسبة ووجوهها المتنوعة ، ولما كانت اللغة متعددة المسالك ، وليس شيء منها بالذي يجمل في كل موطن ، ولا شيء منها بالذي يقبح في كل موطن ، فالشأن إذاً في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد ، والاختيار صعب ، لتنوع شعبه ، وتعدد

(١) المثل السائر : ٢١٠/١ ، ٢١١ والطراز : ١٢٠ ، ١٢١

ألوانه فى صور المفردات والتراكيب ، مما يجعل اختيار كل إنسان مختلفاعن غيره ، تبعا لاختلاف المزاج الإنسانى من شخص لآخر ، اختلافا يصوره أسلوب كل إنسان فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد . وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به بحيث لايجـــد المعنى فى لفظه إلا مرآته الناصعة وصـــورته الكاملة ، ولايجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين ، لايوما أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجىء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ولا الساكن يبغى عن منزله حولا ، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى فى صناعة البيان[1] » .

فندرك ما لهذا الكلام من أثر فى إدراك ما بين أسلوب القرآن وأساليب العرب من تباين واتفاق ، لوضوح تناوله ، وقربه من روح العصر لما اشتمل عليه من صور مادية وضحت المعنويات .

عيوب الفصاحة :

ولما كان كلامنا السابق عن الفصاحة وما يخفى معالمها ويطمس جمالها فى كتب المتأخرين وما ينبغى أن تكون عليه يتسم بالعموم ، فسنحاول تحديده بعض الشىء بمناقشة بعض العيوب التى تخل بفصاحة الكلمة والكلام فى نظر المتأخرين .

فصاحة الكلمة — التنافر :

والتنافر يعد أول عيب يذكره المتأخرون من عيوب فصاحة الكلمه

---

(١) النبأ العظيم : د . محمد عبد الله دراز ص : ٨٢ - ٨٥

والكلام ، وإذا كان لقبه غير محبب للنفوس فإن الشواهد التي استشهد بها عليه كانت هي الأخرى على غير ماتهواها النفس لثقلها وصعوبة النطق بها ، وكل منهما أي من التنافر الذي يخل بفصاحة الكلمة ويعرف بتنافر الحروف والذي يخل بفصاحة الكلام ويعرف بتنافر الكلمات إما ثقيل أو خفيف.

فإذا كان مطلع الحديث عن البلاغة والفصاحة بتلك الصورة المنفرة ، وبهذه الطريقة التي تصد الدارسين عن حب البلاغة وتصرفهم عن الإقبال عليها ، فإن الحديث عن التنافر على هذا النحو لايؤدى الهدف منه إذ لايخرج دارس البلاغة من التقسيمات السابقة إلا بمعرفة معنى التنافر وأنه وصف في الكلمة أو في الكلام يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها وأنه ثقيل كالهعخع لنبات ترعاه الإبل في تنافر الحروف وكقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

من تنافر الكلمات :

أو خفيف نحو مستشزرات بمعنى مرتفعات في قول امرىء القيس في وصف شعر محبوبته :

غدائره مستشزرات إلى العلا ... تضل العقاص في مثنى ومرسل

في متنافر الحروف ، ومن متنافر الكلمات قول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معى وإذا مالمته لمته وحـــدى

أما سر الاهتمام بدراسة التنافر ووجه ارتباطه بالبلاغة فقلما يتنبه إليه والكلام عن التنافر وما يتعلق به يتصل باللبنة الأولى للأسلوب ، وهي : الحروف وأصواتها ،إذ أن الأساليب تتركب من جمل وعبارات ، وتتكون العبارات من ألفاظ والألفاظ تتركب من حروف ، والحروف تتركب من مقاطع وأصوات ، فالترتيب الطبعي والتسلسل المنطقي يقتضي أن يبدأ بدراسة الحروف وأصواتها ومعرفة كل مايتعلق بها باعتبار أنها

اللبنة الأولى فى التركيب ، ولذلك لم يهملها معظم من تناولوا اللغة وبلاغتها بالدرس والبحث ، ومامن كتاب من كتب اللغة أو البلاغة المتقدمة إلا وقفنا فيه على كلام يتعلق بالحروف وأصواتها من ناحية صفات حسنها فقد حظيت باهتمام سيبويه فى « الكتاب » ، وأهتم بها « الجاحظ » فبين أن الاعتناء بها له أثر كبير فى تحقيق البيـان ، وأن تحقيقها بإخراجها من مخارجها مما يكسبها الفخامة والعذوبة(١) .

ولم يهمل « قدامة بن جعفر » الحروف فى حديثه عن نعوت الألفاظ ، فذكر منها : أن يكون سمحا سهل المخارج من موضعها ، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة(٢) .

وتحدث عنها « الرمانى » تحت عنوان : « التلاؤم » فعرفه بأنه تعديل الحروف فى التأليف ، وأنه نقيض التنافر ، ومثل لكل من التلاؤم والتنافر وليس للتنافر فقط كما فعل المتأخرون ، وأرى أن عنوان : التلاؤم أسهل وأحسن وقعا من عنوان التنافر عند المتأخرين(٣) .

وجاء ابن سنان الخفاجى ، فأعطى الحروف وأصواتها قسطها الوافر من البحث والدراسة ، فأدت دراسته الهدف منها فى الوقوف على مكانة الحروف وأصواتها من الأساليب العربية ، واختصر المتأخرون كلامه فكان اختصارهم مخلا .

وإذا كان عبد القاهر لم يقم للحروف وأصواتها وزنا فى الكلام البليغ ،

---

(١) البلاغة العربية فى دور نشأتها : د. سيد نوفل ص ١١١ وما بعدها .
(٢) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى د . بدوى طبانه ص : ٢١
(٣) النكت فى إعجاز القرآن : الرمانى ص : ٩٤ ومابعدها .

ولم يعتد بها فى نظم الكلام ، وينفى رد الحسن إليها فى مواطن كثيرة ومتفرقة من : دلائل الإعجاز — فكان لتأثره الزائد بثقافته النحوية فى دراسة البلاغة ، بما جعله يزن جزئيات التركيب بمقدار موافقتها لقوانين النحو وإرتباطها بنظم الكلام ، ولذلك أغفل الحروف وأصواتها لعدم وضوح تعلقها بالنحو وإرتباطها بقوانينه ، وإن كنا وقفنا له فى آخر أسرار البلاغة على عبارات تفيد أنه لاينفى أن للاهتمام بالحروف مدخلا فى التفاضل وأثراً فى إدراك الإعجاز وإنما الذى ينفيه أن يسند الإعجاز إليها ويجعل فيها[1] .

لذلك أرى أن الذين حكموا على إهمال عبد القاهر قدر الحروف، وانتقدوه بسبب ذلك لم يقرأوا عبارته السابقة عن الحروف فى آخر أسرار البلاغة ، فجاء حكمهم غير دقيق[2] .

البلاغيون المتأخرون يقعون فى الحرج :

وكان من نتيجة اهتمام البلاغيين المتأخرين فى حديثهم عن التنافر بتعريفه وتقسيمه ، والتمثيل له بالشواهد الصعبة الشاذة ، ومحاولتهم تحديد سبب لوجوده ، أهو تقارب الحروف مخرجا أم غير ذلك إلى وقوعهم فى الحرج ، فحين يجعلون منشأه فى تقارب مخارج الحروف يجدون من ألفاظ اللغة ماتقاربت مخارج حروفه وجاء فى غاية الحسن كالجيش والشجى وماتباعدت مخارج حروفه وكان حسنا كملع[3] ، مما جعل واحداً كابن الأثير يرى أنه

---

(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر : ص ٣٣٩

(٢) أنظر : النقد الأدبى : سيد قطب ص : ١٢٣ ط ثانية ، ومقدمة تحرير التحبير د. حفنى شرف ص : ٤٧

(٣) ملع : أى عدا

أمر ذوقى فكل ماعده الذوق الصحيح ثقيلا متعسر النطق فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك[1] .

كما أدى بهم الاحتكام إلى القواعد التى وضعوها والقوانين التى رسموها إلى الوقوع فى حرج أكبر ، وهو القول بوجود كلمات غير فصيحة فى القرآن الكريم ، وأن السورة التى وقع فيها ماهو غير فصيح من الألفاظ لاتخرج عن دائرة الفصاحة كما لايخرج الكلام العربى عن العربية لاشتماله على بعض الكلمات المعربة وقد أبطل سعد الدين التفتازانى ذلك وبين أن القياس على وقوع مفرد غير عربى فى الكلام العربى فاسد لأنه ممنوع ، ولو سلم فالمعنى أنه عربى الأسلوب والنظم ، ولو سلم فباعتبار الأعم الأغلب ولم يشترط فى الكلام العربى أن يكون كل كلمة منه عربية كما اشترط فى فصاحة الكلام أن يكون كل كلمة منه فصيحة فأين هذا عن ذاك ؟ وعلى تقدير تسليم أنه لايخرج السورة عن الفصاحة لكنه يلزم كونها مشتملة على كلام غير فصيح والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح بل على كلمة غير فصيحة مما يقود إلى نسبة الجهل أو العجز إلى الله[2] .

وكيف يمكن قياس الكلام العربى بكلام رب العزة فى القرآن الكريم فللقرآن أسلوبه الفريد الذى يخالف كل المعهود من أساليب العرب ؟

ثم إن القواعد والقوانين التى يحتكم إليها فى دراسة اللغة تستمد من القرآن وتؤخذ منه ، وما يوجد من أمور لاتحكم بقاعدة ولاتضبط بقانون فذلك مما اختص الله به وحده الذى يعرف أسرار كلامه .

فترى أن لقب التنافر منفر وغير مرغوب فيه ، وأن تقسيماته وشواهده

---

(١) المثل السائر ١ ص : ٢١٠ — ٢٢٧

(٢) المطول : سعد الدين التفتازانى ص : ١٧ ، ١٨

أكثر صعوبة منه، والاحتكام إلى القواعد التى تتعلق به أوقع بعض البلاغيين فى حرج لغوى ودينى ، وغير هذا فإنه لا يؤدى الهدف منه فى الوقوف على أسرار الحروف فى اللغة العربية .

ومعرفة أسرار الحروف وأصواتها ينبغى أن يكون أساسا يقوم عليه الدرس البلاغى الحديث على نحو ما فعل ابن سنان من المتقدمين ، ومصطفى صادق الرافعى من المحدثين الذى جعل الحروف وأصواتها وجها من وجوه النظم القرآنى ، وتناولها تناولا يجلى أسرارها ويبرز قيمتها فى فلسفة لغوية صوتية رائعة فى كل من كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

العرابة :

ومن عيوب فصاحة الكلمة كذلك عند البلاغيين المتأخرين ما يعرف بالغرابة وهى كالتنافر فى كون اسمها مرغوبا عنه ، وشواهدها غاية فى الصعوبة والثقل ، فقد مثل لها بقول عيسى بن عمر النحوى حين سقط عن حماره واجتمع الناس حوله : مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى — أى : اجتمعتم تنحوا عنى كشاهد على أحد وجهيها وهو الكلمات الغريبة التى لا يعرف معناها إلا بالرجوع إلى كتب اللغة ، وبقول العجاج :

ومقلة وحاجبا مزججا   وفاحما ومرسنا مسرجا

كشاهد على وجهها الآخر وهو الكلمات التى يخفى معناها فتحتاج إلى تأول فى تخريجها ، ولذلك اختلف فى معنى « مسرج » أهو من السيوف السريجية ، بمعنى أن الأنف فى دقته واستوائه كالسيف السريجى ، أم من

السراج بمعنى أنه فى بريقه ولمعانه كالسراج (١) ؟

هذا هو مجمل مايقع عليه دارس البلاغة عن الغرابة فى كتب المتأخرين والحق أن مفهوم الغرابة ينبغى أن يتطور ليساير اللغة فى تطورها إذ أن ألفاظ اللغة كما نعلم تتطور من عصر لعصر ومن جيل لآخر ، فألفاظ تندثر ويهملها الاستعمال وألفاظ تولد ويكثر استعمالها ، فإن أمكن تطبيق مقياس الغرابة السابق بالنسبة للعصور المتقدمة فإنه لايمكن تطبيقه بالنسبة للعصور المتأخرة ولاسيما العصر الحديث ، إذ أن تطور اللغة كما ذكرنا يجعل كثيرا مما كان مألوفا فى الماضى غريبا اليوم ، مما يترتب عليه أن « مسرج » و « تكأكأتم » و « افرنقعوا » وما ماثلها من الألفاظ التى يحفظها الطلاب كأمثلة للألفاظ الغريبة إن عدت غريبة بالنسبة العصر الذى ذكرت فيه فإنها تعد أشد غرابة بالنسبه للعصور التالية .

مما يجعلنا نرى أن مقياس الغرابة ينبغى أن يحدد بأدب كل عصر فما كان مألوفا لأدب العصر من الألفاظ فهو قريب ، وما كان غير مستعمل اعتبر غريبا ، إذ أن من صفات الأديب أن تكون لغته مما تألفها الحياة ويفهمها المثقفون ،أى إن الضابط السليم فى الحكم على الألفاظ بالغرابة أو عدمها هو مدى دورانها فى الاستعمال الأدبى كثرة أو قلة ،وذلك ماقرره ابن الأثير فى قوله: «إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة فى كلامهم (٢)

ولما كان حب الغريب من الألفاظ والشغف به سمة كثير من الكاتبين

---

(١) بغية الايضاح : ١-١٥

(٢) المثل السائر ١-١١٤ ومشكلات اللغة العربية محمود تيمور ص : ١٤

فى كل عصر وجيل يظنون بذلك أنهم يقدمون جديدا، أو يبينون لغيرهم أنهم متمكنون من معرفة كثير من ألفاظ اللغة محيطون بأسرارها ، كان ضروريا أن يتضمن درس الغرابة ماينبه على أن خير الكلام شعرا أو نثرا ما جاء واضحا بينا ، وأن الإغرام بالغريب والتعلق به والإكثار منه بدون ما حاجة ومن غير داع يفسد الكلام ويبعد عنه صفة القبول ، ويعزل الأدب عن المجتمع ،فيصبح هناك أدبان ولغتان . (١)

الغريب ليس معيبا فى كل الأحوال

وكل مايفهمه طالب البلاغة أن الغرابة من العيوب التى يجب الاحتراز عنها محافظة على فصاحة الكلمة.ومن العجب أنه وقد درس أن من أسباب الغرابة أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى فيحتاج إلى أن يبحث عنها فى كتب اللغة المبسوطة قل أن يتمكن بمفرده من الكشف عن معنى كلمة فى أى معجم من المعاجم .

وخلاف هذا فإن كلمة الغرابة تقترن فى ذهنه بعيوب الفصاحه ، وهذا ماينبغى أن يصحح وينبه عليه فى درس الغرابة من أن الغرابة ليست عيبا فى كل الأحوال ، بل قد يكون استخدام الألفاظ الغريبة عين البلاغة حين يجد من المواقف ، ويطرأ من الأحوال ، ويوجد من الأشخاص ماتكون البلاغة فى استخدام الألفاظ الغريبة التى تناسب هذه المواقف وتتفق مع تلك الأحوال وتتلاءم مع هؤلاء الأشخاص .

إذ من خصوصيات البلاغة أن لكل جماعة من الناس أسلوبا معينا تخاطب به ، فمخاطبة السوقة والعوام بلغة الأدب والشعر عى وجهل ، ومخاطبة

---

(١) اللغة بين القومية والعالمية د . إبراهيم أنيس ص٣٣ :

الأدباء والعلماء بلغة العوام جهل كذلك ، فالواجب إذا كما يذكر أبو هلال العسكرى أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقى بكلام السوقة ، والبدوى بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى مالا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب [1]

فالغريب المعيب إذا هو الغريب المتكلف الذى يكون القصد من حشده ادعاء العلم باللغة ، أما الغريب الذى يقتضيه الحال ويتطلبه المقام فهو عين الفصاحة والبلاغة

غريب القرآن

وكيف يصح القول بأن الغريب عيب ومخل بالفصاحة فى كل الأحوال وهناك الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ؟

وكان ينبغى الوقوف عندها حيث إن الهدف الأول للدرس البلاغى معرفة أسرار الإعجاز فى كلام الله عز وجل ، ويشتمل القرآن على مجموعه كبيرة من الألفاظ الغريبة التى تحتاج إلى تأمل وطول نظر فى فهم مدلولها لا لكونها صعبة أوقلقة أوشاذة بل لأن فيها من الأسرار مالا يستوى الناس فى إدراكه ، حتى أفراد العصر الأول الذين شاهدوا الرسول ﷺ وعاصروا نزول القرآن ولم يعرف اللحن سبيله إلى ألسنتهم ، فقد سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن معنى قول الله عز وجل : «وفاكهة وأبا»[2] فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ، وقال ابن عباس رضى الله عنه وهو ترجمان القرآن : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها يريد أنا ابتدأتها[3]

---

(١) الصناعتين : أبو هلال العسكرى ص : ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة عبس : ٣١

(٣) البيان القرآنى : د . محمد رجب البيومى ص : ١١٧ — ١١٩

فكان ينبغى الوقوف عند هذه الألفاظ الغريبة التى تضمنها القرآن الكريم حتى لا يظن أن فى القرآن شيئاً يخرج على المألوف من سنن العرب فى كلامها، وقد تحدث كثير من الباحثين قديماً وحديثاً عن حكمة وجود هذه الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم، وكادوا يتفقون على أن القرآن قد استعمل الألفاظ الغريبة من اللغة العربية والألفاظ المعربة التى دخلت العربية من لغات أخرى عن طريق التعريب كالحبشية والسريانية والعبرية والفارسية وغيرها لاستلزام الحال لها وعدم وجود ما يقوم مقامها أو يسد مسدها من ألفاظ اللغة العربية، ومن ذلك كلمة «استبرق» فإذا أريد الاستغناء عنها احتيج إلى كلمتين أو أكثر فقيل: الديباج الثخين، والكلمة أولى من الكلمتين وهى متعينة حيث لم يضع العرب بدلا منها، ولذلك يقول السيوطى: «لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك»[٢].

ومن ذلك أيضا كلمة «ضيزى» بمعنى جائرة أو ظالمة، فبالتأمل يتبين أنه لا يوجد من ألفاظ اللغة مايقوم مقامها، إذ السورة التى وقعت فيها وهى سورة النجم ختمت آياتها بالألف المقصورة فجاءت اللفظة على هذه الصورة من ختمها بالألف المقصورة لتتفق مع ما قبلها وما بعدها من الآيات فيتحقق للنظم القرآنى اتساقه وانسجامه، وكان الموقف الذى وردت فيه غريبا يتلاءم مع غرابتها، وهو الإنكار على العرب ما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات فقال تعالى:

---

(١) من قوله سبحانه: «عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً» (سورة الدهر: ٢١

(٢) انظر: معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ص ١٩٧ ج ١ ومن بلاغة القرآن د. أحمد بدوى ص ٩٠ - ٩٤ ط ثالثة.

«ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى» (١)

فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها (٢) فمصطلح الغرابة في مقدمة البلاغة المتأخرة ينبغي أن يتناوله التطور والتجديد، فيجعل مقياس الغرابة الاستعمال ليكون شاملا لكل العصور لأنه بهذه الصورة التي عرفتها يكاد يكون مقصوراً على العصور الأولى التي كانت اللغة لأهلها فطرة وسليقة، وينبه على أن الغريب المعيب هو المتكلف والمجلوب أما الغريب الذي اقتضاه الحال واستلزمه المقام فهو فصيح بليغ كغريب القرآن والحديث والجيد من كلام العرب، وبذا يكون درس الغرابة في خدمة القرآن الكريم، والأدب شعره ونثره.

مخالفة القياس:

وهو من العيوب التي تخل بفصاحة الكلمة، ويراد به: ورود بعض الكلمات على خلاف قوانين الصرف مثل: الحمد لله العلي الأجلل، والقياس فيه: الأجل بالإدغام، وكذلك قول الشاعر:

مهلا أعاذل قد جربت من خلقي ... أني أجود لأقوام وإن ضننوا

والقياس: ضنوا بالإدغام:

ومما يستغرب له أن يحكم البلاغيون المتأخرون بعدم خروج الألفاظ التي وردت في أصل وضعها مخالفة لقواعد الصرف عن دائرة الفصاحة ويجعلونها مستثناة من قاعدتهم السابقة مثل: أبى يأبى وعورت عينه واستحوذ وقطط شعره وآل وماء وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة في اللغة، ولا يجعلون

---

(١) سورة النجم: ٢١، ٢٢.
(٢) إعجاز القرآن: الرافعي: ص: ٢٦١، ٢٦٢ والمثل السائر ١: ٢٨٢، ٢٩٩

ماورد من ألفاظ القرآن على غير قواعدهم فصيحا ، كما سبق من ذهاب بعضهم إلى جواز وقوع غير الفصيح فى سور القرآن مثل قوله سبحانه « ألم أعهد[1] » الذى تقاربت حروفه ولا تخرج السورة بذلك عن دائرة الفصاحة ، ونسوا أن أسلوب القرآن نسيج وحده ، وأن القواعد تستمد منه ، لا أن يحكم عليه بقواعد من صنع البشر ، وقد رأينا ابن الأثير كثيرا ما يعرض القاعدة ثم يقدم من ألفاظ القرآن ما جاء على خلافها وكان غاية فى الحسن مثل قوله سبحانه « فسيكفيكهم الله »[2] وقوله « ليستخلفنهم فى الأرض »[3] اللذين كانا فى غاية الجمال على الرغم من طولهما ، إذ الأولى تسعة أحرف والثانية : عشرة ، وكذلك ألفاظ : النذر وسعر والزبر فى قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » وقوله : « إن المجرمين فى ضلال وسعر » وقوله : « وكل شىء فعلوه فى الزبر »[4] فقد توالت حركة الضم فى الألفاظ السابقة ولم يوجد بها ثقل ولا كراهية[5] ، ولئن حكم ابن الأثير بأن ذلك يعد شاذ الا ينقض الاصل المقيس عليه من ثقل الألفاظ الطويلة ، والتى توالت حركة الضم فيها فإن ذلك لا يكفى ، وهل نعتبر بعضا من ألفاظ القرآن التى لم تتفق مع قواعد البلاغيين شاذا ونعتبر قواعدهم التى يجوز عليها الخطأ والصواب ، ويعتريها ما يعترى كل شىء من صنع الإنسان أمرا ثابتا ومقيسا عليه ؟ فكان أولى بابن الاثير وغيره من البلاغيين واللغويين أن يجعلوا ذلك من خصوصيات أسلوب

---

(١) من قوله تعالى : ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، سورة يس : ٦٠

(٢) سورة البقرة : ١٣٧ (٣) سورة النور : ٥٥

(٤) سورة القمر : ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢

(٥) انظر : المثل السائر : ص : ٢٦٥و٢٦٩

القرآن التي يختص بها ويتميز بها عن أساليب البشر، والتي يعجز البشر بعقولهم القاصرة عن إدراك حقيقتها والوقوف على سرها.

فصاحة الكلام — ضعف التأليف والتعقيد اللفظي

كل منهما من العيوب التي تخل بفصاحة الكلام، ويراد بضعف التأليف عدم جريان الكلام على قوانين النحو المشهورة، كعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة في قول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وبالتعقيد اللفظي: ألا يكون كلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد لخلل واضطراب في ترتيب ألفاظه، كالبيت المشهور للفرزدق [1]:

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

وواضح أن الاحتراز عنهما يكون بدراسة علم النحو، وتطبيق قوانينه تطبيقا سليما يحافظ على سلامة التركيب وانسجامه كما ذكر عبد القاهر في كلامه عن النظم والبلاغيون المتأخرون في دروس علم المعاني، وما دام العيبان يرجعان إلى أمر واحد وهو سوء تطبيق قوانين النحو فلم يكن ثمت ما يدعو

---

(١) في مدح خال هشام بن عبد الملك وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، أي لا يماثله أحد إلا ابن أخته الذي هو هشام.

(٢) مملك: أعطى الملك والمال وهو هشام - يقاربه: أي أحد يشبهه في الفضائل، أبو أمه: أي أبو أم ذلك المملك - أبوه: أي أبو إبراهيم الممدوح - فقد فصل بين المبتدأ أبو أمه والخبر أبوه بأجنبي وهو حي، وبين الموصوف وهو حي وصفته وهي: يقاربه بأجنبي وهو أبوه، وتقديم المستثنى وهو مملكا على المستثنى منه وهو حي، فأدى ذلك إلى التعقيد.

إلى جعلهما عيبين مختلفين ، وكان الأنسب والأولى أن يكونا عيبا واحدا وإن كان سعد الدين التفتازانى يرى أن ضعف التأليف لايغنى عن التعقيد اللفظى (١)

وفيما يتعلق بالتعقيد اللفظى لوحظ أن البلاغيين المتأخرين لم يذكروا ألا شاهدا أو شاهدين ، فى مقدمتهما قول الفرزدق السابق الذى يعد مثلا فى الصعوبة ، وكان الأولى أن يتوسع فى عرض الشواهد من كلا اللونين كما سبق أن بينا ، الحسنة والمعيبة ، وأن يبين فى كل منها مدى موافقتها أو عدم موافقتها لقواعد النحو وتأثير ذلك على معنى الكلام ، حتى لا يفهم أن التقديم الذى يعد سببا رئيسيا فى خروج بيت الفرزدق من دائرة الفصاحة معيب فى كل الأحوال ، لذا كان التنوع فى عرض الشواهد من كلا اللونين مبعدا ونافيا لذلك الظن ، حيث يؤكد أن اللون البلاغى قد يكون معينا على تحقيق البلاغة إن استعمل فى موضعه وناسب الغرض الذى جاء له ،وقد يخرج الكلام عن دائرة البلاغة إن جيء لغير غرض واستعمل بدون مقتض ، وذلك كتقديم المستثنى على المستثنى منه فى بيت الفرزدق السابق بدون ماداع لذلك التقديم فجاء الكلام كما ترى غاية فى التعقيد ومثلا فى الصعوبة .

وهذا ما فعله عبد القاهر ،فقد ذكر من الشواهد المعيبة غير بيت الفرزدق السابق قول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها   من أنها عمل السيوف عوامل

---

(١) المطول : سعد الدين التفتازانى ص : ٢١

(٢) الجفن : غمد السيف ، وقد علل تسميته بذلك بأنه يعمل فى القلوب عمل السيف ، وجاء التعقيد من خفاء مرجع اسم الإشارة ، وتقديم معمول اسم الفاعل عليه .

وقوله أيضاً :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه   والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه[1]

وقول أبي تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن   كاثنين ثان إذ هما فى الغار

وقوله :

يدى لمن شاء رهن لم يذق جرعا   من راحتيك درى ما الصاب والعسل[2]

وذكر كذلك شواهد متعددة لما اتسقت ألفاظه وانسجم تأليفه لاتفاقه مع قواعد النحو ، ومن هذه الشواهد قول البحترى .

بلونا ضرائب من قد نرى   فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا   ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل فى خلقى سؤدد   سماحا مرجى وبأسا مهيباً
فكالسيف إن جئته صارخا   وكالبحر إن جئته مستثيبا

---

(١) أشجاه :أحزنه ،والطاسم والطامس: الدارس، والساجم : السائل يريد: ابكيا معى بدمع هو غاية فى السجوم فهو أشفى للوجد والحزن إذا طسم ربع المحبين .

(٢) حذف عمدة الكلام وأخل بالنظم فقد أراد: يدى لمن شاء رهن إن كان لم يذق لحذف إن كان فأفسد الترتيب وأحال الكلام عن وجهه - دلائل الاعجاز ص : ٦٥ - ٦٧ تحقيق المراغى

(٣) الضرائب : جمع ضريب : والضريب الأول : الصنف والضريب الثاني : المثل ، الوشيك : السريع ، والصليب : الشديد - دلائل الإعجاز ص:٦٨

وفى كل مايذكره عبد القاهر من الشواهد، حسنها أو معيبها ، يبين وجه موافقتها أو عدم موافقتها لقواعد النحو ، وما لذلك من تأثير على المعنى ، فأخذ المتأخرون من البلاغيين كما رأينا الجانب المعيب ، ووضعوه تحت عنوان : التعقيد اللفظى ، ليكون مثلا فى الانصراف عن دراسة البلاغة، فلقبه منفر كما ترى وما استشهد به عليه أشد تنفيراً ، والطريقة التى فسر بها الشاهد أوهمت كما رأيت أن من ألوان البلاغة ما هو معيب ، والأمر أبعد من ذلك .

التعقيد المعنوى :

عده المتأخرون من عيوب فصاحة الكلام أيضا ، وأرادوا به : ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد لخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به وذلك لبعد الوساطة بين المعنيين ، ومثلوا له بقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

حيث جعل جمود العين كناية عن السرور والفرح ، ومعناه فى اللغة عدم البكاء عند إرادة البكاء .

والتعقيد المعنوى يعد من أظهر الشواهد على ما تتسم به مقدمة البلاغة من تفرق وتشتت ، ومن وضع للأمور فى غير مواضعها السديدة ، فقد نقل المتأخرون البيت السابق والتعليق الذى عليه من عبد القاهر ووضعوه فى مكان غير الذى كان له عند عبد القاهر فأضحى غريبا فى موطنه .

فقد ذكر عبد القاهر البيت السابق فى كلامه عن المعنى الأول والمعنى الاول والمعنى الثانى أو المعنى ومعنى المعنى ومايبنغى أن يكون بينهما من علاقة واضحة ووساطة قريبة وسفارة حسنة تجعل الوصول إلى المعنى

الثانى سهلا والوقوف عليه غير صعب .

وقبل أن يذكر عبد القاهر البيت السابق قدم عدداً من الشواهد التى وضحت فيها السفارة بين المعنيين ، وذلك فى وجوه البيان ، فى الكناية كقول الشاعر :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا   أبتاع إلا قريبة الأجل [١]

والاستعارة . كقول الشاعر وهو النابغة الذبيانى :

وصدر اراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب [٢]

والتمثيل كقول الشاعر :

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره [٣]

ثم انتقل إلى ماكان على الضد من ذلك ، فذكر البيت السابق ، موضحا سبب عيبه .

فنقل المتأخرون كما ترى الجانب المعيب فقط ، ووضعوه تحت عنوان « التعقيد المعنوى » الذى جعلوه عيبا من عيوب فصاحة الكلام فى مقدمة البلاغة بعد أن كان شاهدا على خفاء الوساطة بين المعنى الأول والمعنى الثانى عند عبد القاهر والذى يعد الأساس الذى اعتمد عليه المتأخرون فى

---

(١) وهو لابن هرمة ـ والعوذ جمع عائذ ، وهى التى مر على ولادتها عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ، يريد أنه لا يمتع الأمهات بأبنائها بل يذبحها ولا يشترى منها إلا قريبة الأجل .

(٢) العازب من الإبل : ماكان فى المرعى وحده . وأراح : أرجع إلى الحلقة أى جاء الليل بالهم بعد أن كان غائبا .

(٣) ذاده : دفعه ـ وبلوت : خبرت وهو مثل .

(١) بغية الإيضاح : ١ / ٣٠ عبد المتعال الصعيدى

تقسيمهم لعلم البيان ، ومحاولة تفهم معنى البيت السابق فى الموطن الذى ورد فيه من كتب المتأخرين يكاد يكون إرهاقا للفكر وإجهادا للعقل ، بينما لا يحتاج فهمه إلى وقت طويل وإلى مجهود فكرى لو درس فى موضعه، وأخذ من مكانه ، وكذلك كثير من مسائل البلاغة لا يتأتى تمام إدراكها إلا بالرجوع إليها فى موطنها من التراث البلاغى المتقدم .

فصاحة المتكلم .

المتكلم الذى يمكنه أن يقول كلاماً حسنا تستريح له الأسماع وتقبل عليه لخلوه من العيوب ، يعد متكلما فصيحا ، ولئن كان ذلك تفسيرا لما ذكره الخطيب القزوينى عن فصاحة المتكلم بأنها : « ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح »[1]

إلا أنه أسهل وأنسب مما مضى الخطيب القزوينى يذكره فى تعليقه على التعريف السابق ومعه شراح التلخيص من بعده من تحديد معنى الملكة والفرق بينها وبين الفصاحة وغير ذلك من المناقشات التى تنفر الدارسين من البلاغة .

فإذا كانت البلاغة كما رأيت فى حاجة إلى تطوير يبعد عنها الوصف بالعقم والجمود والعزلة وغيرها وتجديد يجعلها ترتبط بالحياة والمجتمع فأولى دروس البلاغة ، بذلك التجديد ، درس الفصاحة الذى يعرف بمقدمة البلاغة فالفصاحة أساس البلاغة ومرآة لها أو وجهها الظاهرى وشكلها المعبر والأساس ينبغى أن يكون ثابتا ومتينا ، والشكل المعبر ينبغى أن يكون جميلا ومقبولا .

---

(١) بغية الايضاح : ١-٢٥ عبد المتعال الصعيدى .

الفصل الرابع

البلاغة ومقتضى الحال

يشتمل ذلك الفصل على النقاط التالية :

١ ـ موضوع البلاغة بين الضيق والغموض .
٢ ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال بين القدماء والمحدثين
٣ ـ مقياس البلاغة لدى الأمم الأخرى .
٤ ـ الحال والمقتضى والمطابقة .
٥ ـ تذوق البلاغة القرآنية على ضوء ميزان البلاغة
٦ ـ وقوع غير البليغ فى القرآن .
٧ ـ التكرار والمتشابه .
٨ ـ البلاغة وفنون القول .
٩ ـ مقتضى الحال والشعر .
١٠ ـ مقتضى الحال والخطابة .
١١ ـ مقتضى الحال والكتابة .
١٢ ـ مراعاة مقتضى الحال فى الحوار .
١٣ ـ مقتضى الحال وأصول التربية .
١٤ ـ الدرس البلاغى لطلاب جامعة الأزهر .

موضوع البلاغة بين الضيق والغموض :

موضوع البــــلاغة الذى تدور حوله أبحاثها ويميزها عن غيرها من العلوم ، ويبين مدى حاجة كل المتكلمين بالعربية إليها كميزان لكلامهم وضابط لأساليبهم هو : مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال .

وهو كما ترى يتكون من شقين : أولهما : كلام فصيح وثانيهما : استعماله فى موضعه المناسب ومقامه الملائم .

وقد ناقشنا قضية الفصاحة وبينا ما يعتريها من قصور ، وما لنا من آراء تتعلق بتطويرها وتجديدها وما ينبغى أن تكون عليه لتؤدى هدفها وتحقق الغرض منها.

ونتناول بعد ذلك الشق الثانى للبلاغة الذى يعد كما ذكرنا قطب رحاها وركيزة بحثها وهو المطابقة لمقتضى الحـــــال لنتبين مدى وفائه أو تقصيره بالأغراض التى وضع لها.

وتبين لنا عموما أن ما ذكره البلاغيون المتأخرون فى مقدمة البلاغة حول تفسير موضوع البلاغة وهو المطابقة لمقتضى الحال كان من الضيق والغموض بما لا يفصح عن أهمية البلاغة ، ولا يبين ما لهـا من قيمة لكل من ينطق العربية .

مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته بين القدماء والمحدثين :

ذلك ما عرف به المتأخرون الكلام البليغ ، وهو يتفق مع ما ذكره المتقدمون من البلاغيين والنقاد ، كما يتفق أيضا مع ما ذكره المحدثون ودعاة التجديد ويتفق كذلك مع ما ورد من تعريفات للبلاغة عند الأمم الأخرى ، فلا اختلاف بين علماء البلاغة والنقد قديما وحديثا على موضوع البلاغة كما يعبر عن ذلك تفسيراتهم التى يتفق مضمونها وإن اختلف رسمها وشكلها على أن الكلام البليغ ما حسن شكله ولطف معناه أو هو ما حقق الإقناع ولقى

القبول بجمال شكله وروعة مضمونه.

وما يبدو من اختلاف ظاهرى حول موضوع البلاغة بين ما يدعى بالبلاغة القديمة وما يدعى بالبلاغة الحديثة فلا يعدو أن يكون سوى اختلاف فى العرض وفى طريقة التناول ، أما المضمون فلا يختلف بين القديم والحديث بحال من الأحوال .

بل إن معظم ما ينادى به دعاة التجديد من نظريات فى البلاغة والنقد موجود وكائن فى بلاغتنا العربية .

فقد عرف الرمانى البلاغة بأنها : ايصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ (١)

وعرفها أبو هلال العسكرى بأنها : كل ماتبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، ونبه العسكرى على أهمية حسن الصورة وجمال الشكل بأن الكلام إذا كان مفهوم المعنى وعبارته رثة لا يعد بليغا(٢)

وإذا كان البلاغيون والنقاد المتقدمون لم تتعارض آراؤهم حول موضوع البلاغة كما ترى ، فإن المحدثون أيضاً كذلك ، وهل يوجد تعريف للبلاغة فى القديم والحديث يكون أكثر إحاطة وشمولا لها من التعاريف السابقة ؟

وقد شرح المرحوم : أحمد حسن الزيات تعريف المتأخرين السابق للبلاغة شرحا وضح فيه اتساعه وشموله لكل ما قيل عن البلاغة وما يقال عنها مبينا أن الأحوال المعروضة أو المفروضة ليست إلا انفعالات العواطف فى النفس، أو اتجاهات الخواطر فى الذهن ، وأن المقتضيات هى الصور البلاغية التى يهتدى إليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها فى هذه العواطف أو فى تلك

(١) النكت فى إعجاز القرآن : الرمانى ص : ٧٥
(٢) الصناعتين : أبو هلال العسكرى ص : ٨

الخواطر التأثير الذى يريد [١]

وعلى هذا فإنى لا أوافق المرحوم / حفنى شرف فيما يراه من أن تعريفات البلاغيين للبلاغة تفتقد فيها العاطفة والخيال والفكرة [٢]

فقد رأينا أن تعريفات البلاغيين للبلاغة تكاد تتفق على أن الكلام البليغ ما حقق الإقناع والامتاع، وكيف يتحقق الإقناع والإمتاع والكلام ناقص غير واف ؟ ومعلوم أن النظم الجيد والأسلوب الجميل مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها المتكلم من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه، وتلك العناصر هى الأفكار، والصور، والعواطف، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة.

مقياس البلاغة لدى الأمم الأخرى :

كما لا يختلف مفهوم البلاغة لدى الأمم الأخرى عن مفهومها الذى عرفته فى لغتنا العربية قديما وحديثا فهى عند الفارسى : معرفة الفصل من الوصل وعند اليونانى : تصحيح الأقسام وإختيار الكلام ، وعند الرومى حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وعند الهندى وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة [٣]

وتعد صحيفة بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ هـ التى رواها أبو عثمان الجاحظ فى : البيان والتبيين شرحا وافيا وتفسيرا بينا لموضوع البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ومن أبرز ما جاء فيها : تخير أوقات الكتابة فى حالات النشاط وفراغ البال من الشواغل ، وتوقى التوعر والغموض ، وإختيار اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، ومخاطبة العوام والخواص بما يليق بهما من الأساليب، ومعرفة أقدار المعانى والموازنة بينها وبين أقدار المستمعين

---

(١) دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات ص : ٢٢ ، ٢٣
(٢) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق د . حفنى شرف ص : ٢٧٦
(٣) البيان والتبين : الجاحظ ١ / ٢٢

وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات(١)

فاذا كان مفهوم البلاغة عند المتقدمين من البلاغيين والنقاد وعند المحدثين منهم، وفى اللغات الأخرى لا يختلف عن مفهومها المعروف لدى البلاغيين المتأخرين وهو: مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال فما الذى حال بين البلاغة وبلوغ أغراضها ومنعها من تحقيق أهدافها ؟ لا شيء سوى الضيق والغموض الذى أحاط تفسير المتأخرين لها فى مطلع كتبهم.

لقد عرف الخطيب القزوينى بلاغة الكلام بما سبق، وفى توضيحه للتعريف ذكر أن اختلاف المقامات يتبعه اختلاف فى مقتضياتها، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام إلى غير ذلك(٢).

فقد حصر الخطيب القزوينى موضوع البلاغة الذى يتعلق بكل فنون القول، ويرتبط بجميع وجوه الأساليب فى الأمور السابقة وغيرها من أبواب علم المعانى الثمانية وهى: أحوال الإسناد الخبرى — أحوال المسند إليه — أحوال المسند — متعلقات الفعل — القصر — الفصل والوصل — الإنشاء الإيجاز والإطناب والمساواة .

وفضلا عن ضيق التفسير السابق لمفهوم البلاغة كما رأيت وعدم اتساعه

---

(١) المرجع السابق ١٣٥/١ وما بعدها والصناعتين ص : ١٣٤
(٢) بغية الإيضاح عبد المتعال الصعيدى ٢٦/١

لتناول وجوه الأدب وفنون القول التى ترتبط بالبلاغة فإنا نراه يضيق مرة أخرى بالنسبة للبلاغة ذاتها بما يوهم التناقض ويوحى بالاختلاف والاضطراب .

فبعد أن عرف الخطيب القزوينى بلاغة الكلام بماسبق ذكره ، وما يفيد أن كل لون من ألوان التعابير ، وأى ضرب من ضروب الأساليب يحكم عليه بالبلاغة أو بعدمها بمطابقته لمقتضى الحال أو بعدم مجيئه على وفق مقتضى الحال ، نراه يأتى بعد هذا ليقيد مفهوم البلاغة السابق تقييداً يحد من انطلاقه ويضيقه تضييقا يقلل من شموله واتساعه .

وذلك حين يجعل موضوع المطابقة لمقتضى الحال من خصوصيات أبواب علم المعانى الثمانية التى سبق ذكرها ، أى يجعل بحث المطابقة موضوع علم المعانى الذى عرفه بأنه : العلم الذى يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال .

ويأتى لعلم البيان فيجعل مطابقة الكلام لمقتضى الحال فيه فى مرتبة ثانية بعد ابراز المعنى الواحد فى صور مختلفة فى وضوح الدلالة عليه كما ذكر فى تعريفه له .

فإذا ما وصل إلى علم البديع رأيناه يجعل المطابقة لمقتضى الحال فيه غير ذات أهمية ، أو يكاد يلغيها ، حيث يجعل البديع تابعا لعلمى المعانى والبيان كما يدل على ذلك تعريفه له بأنه : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد(١)

وتابعه فى ذلك معظم الذين أتوا بعده ، تناولوا تلخيصه بالشرح والتعليق

---

(١) بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ١/٣٥ و ٣ /٢ و ٤/٢

فصاحب المطول يذكران لفظة « تبعا » يشير إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضى خارج عن حد البلاغة ، وأن تقديم البيان على البديع لشدة الاحتياج إليه لكونه جزءا من علم البلاغة ومحتاجا إليه فى تحصيل بلاغة الكلام بخلاف البديع فإنه من التوابع[1] .

وامتد ذلك إلى العصر الحديث فالمرحوم / عبد المتعال الصعيدى يذكر فى تعليقه على تعريف الخطيب السابق للبديع أنه لا يشترط فيه ضرورة المطابقة لمقتضى الحال لأنه يبحث عن وجوه الحسن بقطع النظر عن اشتراط ذلك فيها كما يبحث علم المعانى عن المطابقة بقطع النظر عن غيرها ، ويبحث علم البيان عن وضوح الدلالة بقطع النظر عن غيره ، وأن المحسنات البديعية تحسن فى الكلام ولو لم يكن هناك حال يقتضيها[2]

وإذا كان موضوع البلاغة كما عرفت يتمثل فى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، وينطبق ذلك الحكم على كل الأساليب فكيف تصح التفرقة بين بعض الأساليب من هذه الناحية ، وبأى وجه يسوغ القول بأن من علوم البلاغة ما ينبغى توفر المطابقة لمقتضى الحال فيه كالمعانى والبيان وما لا يشترط ذلك فيه كالبديع ؟

فنرى أن تفسير الخطيب القزوينى لمعنى المطابقة لمقتضى الحال بحصره فى علم المعانى بأبوابه الثمانية ، جاء مضغوطا وضيقا بما لا يكاد يبين عن أهداف البلاغة ولا يفصح عن وجه ارتباطها بفنون القول المختلفة ومدى تعلقها وارتباطها بوجوه التعابير المتنوعة .

كما لا يتمكن من إدراك التفسير السابق لمعنى المطابقة لمقتضى الحال إلا الذى يلم بمبادىء النحو ويقف على أسراره ويحيط علما بمسائله .

---

(١) المطول : سعد الدين التفتازانى ص ٣٠٠

(٢) بغية الايضاح : عبد المتعال الصعيدى ٢/٤

فذلك يعد وجها من وجوه الضيق ومثلا للغموض الذى يلف تفسير البلاغيين المتأخرين لمفهوم البلاغة .

الحال والمقتضى والمطابقة .

وجاء تفسير المتأخرين لمفهوم كل من الحال والمقتضى والمطابقة يمثل كذلك جانبا آخر من جوانب الضيق والغموض الذى يحيط بموضوع البلاغة فقد عرفوا الحال بأنه الأمر الداعى إلى التكلم على وجه مخصوص، ومقتضى الحال بأنه الأمر المخصوص الذى يراعيه المتكلم مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال بمجيئه مشتملا على ذلك الأمر المخصوص، ومثلوا لذلك باختلاف حال الإنكار عن حال التعريف وحال الإطلاق عن حال التقييد وحال الذكر عن حال الحذف وحال التقديم عن حال التأخير وغير ذلك .

كما استشهدوا على اختلاف الأساليب لاختلاف المقامات بشواهد منها قصة الكندى المتفلسف مع أبى العباس المبرد، إذ قال له الكندى: إنى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم وإن عبد الله قائم وإن عبدالله لقائم بألفاظ متكررة لمعنى واحد، فقال له المبرد: بل المعانى مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر فاختلفت الألفاظ لاختلاف المعانى ، فما أحار المتفلسف جوابا[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ص : ٢١٥ وبغية الايضاح ٤٦/١.

فترى أن الكلام السابق من الضيق والغموض بما لا يدركه إلا من كان على خبرة بمبادىء النحو ودراية بأحكامه، كما أنه قد اهتم بتوضيح المقتضيات وأغفل الأحوال، والمقتضيات مرتبطة بالأحوال، أو ذكر المقتضيات يدعو إلى تحديد الأحوال.

وتحديد الأحوال المميزة للمخاطبين يعد أول أعمال المتكلم البليغ وأهمها ليتأتى له أن يصوغ عباراته، ويضبط أساليبه بمقتضاها وعلى وفقها ولما كانت أحوال المخاطبين متنوعة ومتعددة، وتحكمها وتؤثر فيها أمور كثيرة كان من المناسب والضرورى أن تحدد هذه الأحوال وما بينها من اختلاف وما يؤثر فيها من أمور بدلا من إرهاق الفكر وشغل البال بتحديد العلاقة بين الحال والمقام وما بينهما من اتفاق أو اختلاف على نحو ما ذكره صاحب المطول وخلص إلى أنهما متقاربا المفهوم، وأن التغاير بينهما اعتبارى[1].

فتحديد الأحوال الخاصة بالمخاطبين، وما تخضع له من مؤثرات يعد كما ذكرنا أول وأهم ما يقوم به البليغ خطيبا كان أو شاعرا أو كاتبا، لأنه الأساس الذى يعتمد عليه فى اختيار الكلمات، وتنسيق العبارات فكان من اللازم والضرورى أن تشتمل مقدمة البلاغة فى الموطن الذى يتعلق بتوضيح معنى البلاغة على ما يبين وجوه الأحوال وما بينها من اختلاف وما تخضع له من تأثيرات، ولو على سبيل العموم، ومن ذلك:

ما ينبغى أن يعرفه المتكلم عن أهم الأمور التى تتأثر بها أحوال المخاطبين ليراعيها فى نسج عباراته، كمعرفة بيئته: أهو بدوى أم ريفى أم حضرى؟ حيث إن لكل من هؤلاء أسلوبا يناسبه وطريقة فى الخطاب تلائم ظروف بيئته كما هو معروف فى علم اللهجات.

---

(١) المطول ص: ٢٧

ومن تلك الأمور التى تتأثر بها أحوال المخاطبين وينبغى أن يقف عليها المتكلم : نوع المهنة التى يعملون فيها ، لما هو معروف من أن لأفراد كل مهنة معينة أساليب تشتهر بينهم ، ويكثر استعمالها ودورانها فى محيطهم ، والبليغ الذى يعمـــل على أن يكون كلامه مطابقا لمقتضى الحال يهمه أن يعرف نوع مهنة من يخاطبهم ليجىء كلامه ملائما لهم ومتفقا مع ما يألفونه من عبارات ، فلكل من المدرس والمهندس والطبيب والفلاح والجندى والطالب والعامل بناء على هذا حال معينه ينبغى مراعاتها عند التخاطب معه ، حتى أن من العمال ما تتأثر لهجته بتخصصه الدقيق وبالتالى يكون الوقوف على نوع هذا التخصص وما يناسبه من أنواع الأساليب محققا لموضوع المطابقة (١) .

ومن هذه الأمور أيضاً التى ينبغى أن يراعيها المتكلم فيما يتعلق بدراسته لأحوال مخاطبيه: عامل الوقت ـ فراعاة عنصر الوقت أمر هام وضرورى لتحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وتتمثل مراعاة عنصر الوقت من ناحية تخير الوقت المناسب لكل من المتكلم والمخاطب وتحديد الفترة الزمنية التى ينبغى أن يستغرقها الحديث يتحكم فيها : الموضوع ، وظروف المستمعين ، وظروف المتكلم ومراعاة عنصر الوقت من تلك الناحية هام جدا وضرورى لتحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فكم من أحاديث قيمة ومقالات مفيدة وخطب نافعة لم يحدد وقتها ولم تضبط الفترة الزمنية التى تناسبها من الناحية السابقة فمجتها الأسماع ولفظتها الطباع .

---

(١) ويعرف ذلك فى علم اللهجات باللهجات الحرفية التى يتكلم بها أهل الحرف المختلفة فيما بينهم كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين وغيرهم ـ نشأة اللغة عند الإنسان والطفل د . على عبد الواحد وافى ص ١٣٢ ـ ١٤٠

فهذه أمور هامة تحقق مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد أهملها البلاغيون المتأخرون ؛ وهى كما ترى تتعلق بكل من المتكلم والمخاطب ، وتتصل بأحوال كل منهما ، ومن المقتضيات التى أهملها المتأخرون ولم يذكروها مع ماذكروه من مقتضيات : السكوت ، الذى قد يكون تحقق المطابقة به ، وتكون البلاغة فيه ، ومايتصل به من حسن الاستماع فالسكوت عن الكلام فى بعض المواطن أفضل من الكلام ، والكلام فى مواضع السكوت عى وجهل ، وقد قيل لبعهم : السكوت أفضل أم النطق ؟ فقال : السكوت حتى يحتاج إلى النطق فإذا احتيج إلى النطق فالسكوت حرام ، كما قيل : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . (١)

فتلك نماذج ليست على سبيل الحصر لما ينبغى أن يتضمنه تفسير البلاغيين لمعنى البلاغة فى مطلع دراسة البلاغة ، وهى ترينا إلى أى مدى تتعلق البلاغة بالحياة ، وتتصل بالمجتمع ، إذ أنها ميزان الكلام الذى يعد الوسيلة الأولى للاتصال بين أفراد المجتمع .

وعلى سبيل العموم ينبغى أن يقف البليغ على كل شىء يتعلق بمخاطبيه ليجىء كلامه مطابقا لأحوالهم فيلقى منهم القبول ، والبليغ فى ذلك كالتاجر الماهر الذى يراعى خصائص المستهلكين من حيث تكوينهم وذوقهم العام والعادات المنتشرة بينهم ومستوى تعليمهم ومستوى معيشتهم وتوزيع الدخل بينهم وطرق انفاقه ودرجة الميل إلى الإدخار أو الاستهلاك وظروف الحياة حضرية كانت أو ريفية أو قبلية وغير ذلك .

تذوق البلاغة القرآنية على ضوء ميزان البلاغة :

عرفت أن ميزان الكلام ، هو مطابقته لمقتضى الحال ، وهذا الميزان

(١) الصناعتين : ص ١٣ وزهر الآداب : ١ / ١٠٢

لكل من الأديب والبليغ كالميزان فى يد التاجر ، يقوم به سلعه التى يشتريها أو يبيعها ليعرف قيمة ثمنها ، ولا يمكنه الاستغناء عنه ، كذلك الأديب والبليغ لايمكنهما الاستغناء عن الميزان السابق الذى يعينهما على ضبط أساليبهما ، ويتمكنان به من توضيح الأسرار البلاغية والجماليه ، ومعرفة وجوه الحسن أو القبح فى الأساليب .

ومن ثم فإن أول مايتبينه البليغ عند النظر فى أى أسلوب تحديد المقام الذى ذكر فيه ، وما يناسب ذلك المقام من التعابير ، ومدى تحقق ذلك بالنسبة للأسلوب الذى بين يديه ، أى مقدار ما حققه ذلك الأسلوب من توافق مع المقام الذى ذكر بصدده .

وإذا كان الاحتكام إلى ذلك الميزان هاما وضروريا بالنسبة لكل الأساليب التى يراد معرفة منزلتها من البلاغة فإنه أكثر أهميه بالنسبة للوقوف على الأسرار البلاغية فى كلام رب العزة ، إذ لايكفى ولا يقنع فى تذوق البلاغة القرآنية أن تذكر الآيات كشواهد وأمثلة لبعض فنون البلاغة وأنواعها بدون تحديد وتوضيح للمقام الذى نزلت الآيات بشأنه ووجه انطباقها على ذلك المقام ، ومعظم الذين لفتت دراساتهم الأذهان إلى مافى القرآن من أسرار بيانية وإعجاز بلاغى هم الذين تناولوا البلاغة القرآنية بالطريقة السالفة ، وقدموها على هدى من ميزان البلاغة السابق ، أما من كان جل همهم ذكر اللون البلاغى والاستشهاد عليه بأيات من القرآن الكريم فلم يكن عملهم ذا بال .

فمثلا قول الله سبحانه : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر »[1] يذكره البلاغيون

---

(١) سورة الطارق : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨

المتأخرون ضمن شواهد المجاز العقلى لعلاقة المفعولية وذلك فى إسناد الدفق إلى ضمير الماء .

فالاقتصار على ذلك يسمى قواعد بلاغة ولا يسمى بلاغة ، إذ أن إدراك الأسرار البلاغية لا يكون إلا بعد تحديد المقام الذى نزلت فيه الآيات ليتسنى بعد ذلك الوقوف على ملاءمة الآيات لما استلزمه المقام : فالمقام الذى نزلت فيه الايات هو دعوة الإنسان إلى التأمل والنظر فى بدء خلقه ، وأصل تكوينه وما يحوى من عجب ليزداد إيمانا بقدرة الله ، فاقتضى ذلك أن يكون فى تركيب الآيات من الغرابة والعجب ما يتفق مع غرابة الموقف ، وتمثل ذلك كما رأيت فى إسناد الدفق إلى الماء بينما هو المدفوق أى الذى يقع عليه الدفق . وقد أفاد ذلك الإسناد على سبيل المجاز العقلى أن الماء الذى يحدث به الحمل يكون فى منتهى السرعة بما يمكن الحيوان المنوى من الالتصاق ببويضة الأنثى فيكون الحمل ، وتتبين أثر الإيجاز المعجز فى ذلك الإسناد حيث إنه قد صور عملية الحمل التى تكلم فيها علماء الأجنة كلاما كثيراً فى قوله . « خلق من ماء دافق » .

كما تتبين خصائص القدرة الإلهية فى أن الإنجاب يتعلق بها مصداقا لقوله « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ... »[1] ولا يمكن لفرد أو مجموعة من البشر مهما أوتوا من العلم أن ينازعوا القدرة الإلهية فى ذلك بالموازنة بين دفقنا الماء بوسائل الدفق المعروفة وبين ذلك الدفق الذى يتم بإرادة الله وقدرته ، ويكون سبيلا إلى إنجاب الذرية .

وهكذا نرى أن تذوق البلاغة القرانية على هدى من ميزان البلاغة ،

---

(١) الآية ١١ سورة فاطر

بتحديد المقام ومايستلزمه ، وتبين مطابقة الآيات لذلك المقام هو السبيل القويم لإدراك الإعجاز البلاغي في كلام الله عز وجل .

وقوع غير البليغ في القرآن :

وقد أدى تصنيف فنون البلاغة إلى مراتب يعلو بعضها بعضا إلى توهم وقوع غير البليغ في القرآن الكريم ، وأن القرآن بعضه أبلغ من بعض ، بل رأينا من البلاغيين من يقرر ويحكم بوقوع غير الفصيح في القرآن الكريم كما سبق في الحديث عن الفصاحة .

وكل من الفريقين الذين يقولون بأن القرآن بعضه أبلغ من بعض والذين يقولون بوقوع غير الفصيح في القرآن الكريم معذور فيما ذهب إليه لأنهم لم يأتوا الامر من بابه ، ولم يبدأوا الموضوع من أصله وأساسه ولم يصدروا في أحكامهم عن ميزان البلاغة .

فميزان البلاغة يؤكد أن القرآن كله درجة واحدة في البلاغة ، وسبيل واحد في الفصاحة لأن جميع ما فيه قد صادف موقعه وناسب موطنه ، وكل عبارة من عباراته وكلمة من كلماته في موطنها آية في البلاغة وشاهد على الفصاحة وإن كانت ضمن لون أقل بلاغة في تقسيمات البلاغيين .

فمثلا يعرف لدى البلاغيين أن الاستعارة المرشحة أبلغ من المجردة ، لما يضيفه الترشيح من قوة للاستعارة في الأساس الذي تقوم عليه وهو إضعاف تناسي التشبيه ، ولما وقع التجريد في القرآن الكريم كان أبلغ في موطنه ، وأنسب في مكانه وإن كان أضعف من الترشيح في عرف البلاغيين كما رأيت ، وتتبين ذلك في قول الله سبحانه . « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع

والخوف بما كانوا يصنعون(١)

فقد صورت كلمة «لباس» المضافة للجوع والخوف البلاء الشديد الذى أنزله الله بهذه القرية المتمردة الباغية التى شملها البلاء وعمها الجوع والخوف كما يعم الثوب الجسد ويشتمل عليه، فهى استعارة تصريحية أصلية بقرينة الإضافة إلى الجوع والخوف.

وكلمة «أذاقها». لما كانت تناسب المستعار له وهو الأثر الناجم عن الجوع والخوف اعتبرت تجريدا، وهى تشعر بشدة الإصابة وعظيم البلاء الذى يستلزمه المقام، ولذلك أوثرت على الترشيح وهى: «كساها» التى تلائم المستعار منه، وكانت كلمة «اذاقها» أبلغ فى موطنها لما عرفت من استلزام الموقف لها فكانت أبلغ فى مكانها. (٢)

وكذا يتبين بهذه الطريقة بلاغة كل عبارة فى موطنها، وأن القرآن جميعه وجه واحد فى البلاغة.

---

(١) الآية: ١١٢ سورة النحل

(٢) فأوثر التجريد على الترشيح ولم يقل فكساها الله لباس الجوع والخوف لان الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس فكان فى الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف التعبير بالكسوة، وكانت الإذاقة، من ملائمات المستعار له مع انه ليس الجوع والخوف من المطعومات لأنه شاعت الاذاقة فى البلايا والشدائد وجرت مجرى الحقيقة فى إصابتها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب - تجريد البنانى ٢-١٩٦ ط أولى

التكرار والمتشابه :

كما أن الاهتمام بأسباب نزول الآيات ومعرفة المقام الذى وردت فيه يعد من أقوم السبل لحسم كثير من القضايا التى تتعلق بأسلوب القرآن الكريم ، ومنها : ظاهرة التكرار والمتشابه ، فقد نهى الله عن قتل الأولاد نهيا صريحا فى سورتين مختلفتين فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... »(١) وقوله أيضاً : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم . »(٢) فقد يتوهم البسطاء أن الآيتين تدوران حول معنى واحد ولا فرق بينهما ولكن أصحاب الحس اللغوى والبلاغى يدركون أن بين الآيتين فرقا شكليا دقيقا يتمثل فى أن الإملاق أى الفقر قد سبق فى الأولى « بمن » وفى الثانية « بخشية » وأن الوعد برزق المخاطبين تقدم فى الآية الأولى وتأخر فى الثانية .

ولما كان دارس البلاغة يعلم جيداً أن أى تغيير فى الشكل يكون ناشئا عن تغيير فى المعنى واختلاف فى المقام ، فإنه يتلمس مقام كل من الآيتين فيجد المقام مختلفا بينهما ممـا أدى إلى الاختلاف بينهما من الناحية الشكلية .

فحال المخاطبين غير متحد فى كل من الآيتين ، إذ أن المخاطبين فى الآية الأولى فقراء ، وقد دل عليه « من فقر » فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم .

بينما هم فى الثانية أغنياء بدليل قوله « خشية إملاق » أى خوفا من الفقر

---

(١) سورة الأنعام : ١١٥
(٢) سورة الاسراء : ٣١

لأن الخشية تكون من أمر لم يقع بعد فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم لأنه موجود .

البلاغة وفنون القول :

ومن وجوه الضيق أيضا فى تفسير البلاغيين المتأخرين لموضوع البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته عدم إتساع ذلك التفسير واشتماله لوجوه القول المتنوعة من شعر وخطابة وحوار وكتابة وغيرها مما أوحى بضيق البلاغة وعزلتها وأوهم انحصارها فى علومها الثلاثة ولاسيما علم المعانى الذى يبحث فى وجوه المطابقة لمقتضى الحال .

ولما كانت البلاغة وثيقة التعلق بالأدب كما عرفت ، والأدب متنوع الفنون ، ولكل فن ما يناسبه من ألفاظ وأفكار وموضوعات فكان ضروريا أن يتضمن تفسير البلاغيين لموضوع البلاغة الأحوال التى تخص كل فن من فنون الأدب ، وما يناسب تلك الأحوال وبذلك يدرك دارس البلاغة فى مطلع الدرس البلاغى أهمية البلاغة وقيمتها كميزان يضبط فنون القول من : شعر وخطابة وكتابة وغيرها لذلك سنبين على وجه السرعة وجه ارتباط البلاغة ببعضها .

مقتضى الحال والشعر :

للشعر مجالات يحسن فيها ، وللنثر كذلك مواطن يحمد فيها أكثر من الشعر ، ولكل منهما أساليبه التى يتميز بها[1] .

---

(١) يقول ابن خلدون : « اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين فى الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى وفى النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب فى الكلام فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمنه السجع .. ومنه المرسل .. واعلم أن لكل واحد

ولما كانت أغراض الشعر متنوعة فإن على البليغ أن يقف على الأحوال التى يتميز بها كل غرض، وما يناسب كلا منها من وجوه الأساليب وقد فصل ابن رشيق القيروانى القول فى تحـــديد الفروق بين أغراض الشعر وما يلائمها من طرق التعابير [١] .

ومما قيل فى تفسير ثناء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على زهير بن أبى سلمى بأنه كان لايعاظل بين الكلام ، ولايتتبع حوشيه ، ولايمدح رجلا إلا بما فى الرجال — أنه لايمدح السوقة بما يمدح به الملوك ، ولايمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال وحملة السلاح [٢] .

وابن طباطبا العلوى يرى أن استعمال أغراض الشعر فى وجوهها المناسبة سبب فى حسن الشعر حين يقول : « ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى وهى موافقته للحال التى يعد معناه لها كالمدح فى حال المفاخرة ، وكالهجاء فى حال مباراة المهاجى ، وكالمراثى فى حال جزع المصاب، وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه .. وكالتحريض على القتال عند التقاء الأقران وطلب المغالبة ، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق واهتياج

من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولايصلح للفن الآخر ولاتستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختصين بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك ..: والخروج على هذا غير صواب من جهة البلاغه لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب :

مقدمة ابن خلدون.ص : ٥١٣ ، ٥١٤

(١) أنظر : العمدة : ابن رشيق : ٢ص : ١٠٣ — ١٤٣

(٢) الموازنة ص : ٢٦١ ط أولى والوساطة ص ٢٤ ط رابعة

شوقه وحنينه إلى من يهواه »(١) .

كما يراعى تحقق التناسب فى الشعر بين المعانى ومايليق بها من الأوزان والألفاظ ، إذ ليست كل الأوزان صالحة لجميع المعانى ، فلكل وزن معان تناسبه وأغراض تتلاءم معه ، فالطويل مثلا : يمثل الفخامة ويصلح للإنشاد فى المحافل حيث يطول معه النفس ويمتلىء بالهواء الصدر فيخرج الصوت مليئا فيهجم على الأسماع فيدخلها من غير استئذان ، وتسهل معه الإشارة الخطابية ، والمعانى الحماسية ، والرمل يمثل الرقة والعذوبة ويسهل فيه الغناء ، وقد ذكر البلاغيون والنقاد ومؤرخو الأدب أن لتطور الأوزان الشعرية صلة مابتغير الأفكار وفقا لتغير البيئة وتغير الحضارة(٢) .

ومن الشعر الذى عيب لعدم تناسب ألفاظه للمعنى المقصود قول المسيب ابن علس :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

فسمعه طرفة فقال : استنوق الجمل . لأن الصيعرية من سمات النوق وقول امرىء القيس :

وأركب فى الروع خيفانة   كسا وجهها سعف منتشر

إذ شبه ناصيتها بسعف النخل لطولها ، وإذا غطى الشعر العين لم يكن الفرس كريما .

ومن الألفاظ الحسنه التى استعملت فيما لا يناسبها من المعانى قول كثير :

---

(١) عيار الشعر : ابن طباطبا ص : ١٦

(٢) التجديد فى الأدب المصرى الحديث : عبد الوهاب حمودة ص : ٤٠ ط دار الفكر العربى وموسيقى الشعر العربى د . شكرى عياد ص : ١٧ ط أولى

فقلت لها يا عز كل مصيبة   إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

فقال النقاد : لو أن كثيرا جعل هذا البيت فى وصف حرب لكان أشعر الناس .

ومن مراعاة مقتضى الحال كذلك فى الشعر جودة المطلع، وأن يكون مناسبا للغرض الذى ذكرت فيه الأبيات لا متعارضا معه ، فإن كان الغرض مدحا أو فخرا أو تهنئة أو وصفا وجب ألا يتضمن المطلع شيئا مما يتصل بالرثاء والحزن أو مما يتشاءم منه ، ولذلك أنكر الفضل بن يحيى البرمكى على أبى نواس قوله :

أربع البلى إن الخشوع لباد   عليك وإنى لم أخنك ودادى

وتطير منه فلما انتهى إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى برمك من رائحين وغادى

استحكم تطيره فيقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة(١)

ومن مراعاة مقتضى الحال كذلك فى الكلام عموما وفى الشعر بصفة خاصة مخاطبة كل من الرجل والمرأة بما يليق بهما ، فإن ما يخاطب به الرجل قد لا يحسن بعضه مع النساء وكذلك العكس ، كالمدح بالوفاء بالعهود والشجاعة والجود وغير ذلك فانه من فضائل الرجال ، ولو اثنى به على النساء لكان ذمالهن ، وقد أنشد رجل زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور .

أزبيدة بنت جعفـــــر   طوبى لزائرك المثاب

---

(١) عيار الشعر: ابن طباطبا ص: ٢٢٢ ، وقد ذكر ابن الاثير أن الابتداءات خصت بالاختيار ، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام ، فاذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استماعه كافتتاحات القرآن فى أوائل السور ، فكلها مما يبعث على الاستمتاع إليه كالتحميدات والحروف المقطعة . المثل السائر ٣-٦٨

تمطين من رجليك ما تعطى الأكف من الرغاب

فوثب إليه الخدم يضربونه ، فمنعتهم من ذلك وقالت : أراد خيرا وأخطأ وهو أحب إلينا ممن أراد شرا فأصاب، سمع قولهم : شمالك أندى من يمين غيرك ، فظن أنه إذا قال هكذا كان ابلغ ، أعطوه ما أمل ، وعرفوه ما جهل [١]

وقد استوفى هذه الوجوه التى توضح التناسب بين المعانى والأوزان والألفاظ ابن طباطبا العلوى فى كتابه : عيـــار الشعر الذى لا يحظى من دارسى البلاغة بكثير من النظر اعتمادا على أنه كتاب فى النقد ، فقد عرض فيه نماذج كثيرة ومتنوعة للاشعـــار المحكمة المعنى السلسلة الألفاظ التى لا استكراها فى قوافيها وللاشعار القاصرة عن الغايات لعدم التلاؤم بين ألفاظها ومعانيها وللاشعار الجيدة اللفظ الواهية المعنى ، وللاشعار المستكرهة الألفاظ القلقه القوافى .

ومعرفة هذه الوجوه كما ترى يعد من صميم موضوع البلاغة وهو المطابقة لمقتضى الحال ، وإنها تبين علاقة البلاغة بأهم فنون الأدب وهو الشعر ومن غريب أن ينظر إلى الوجوه السابقة على أنها من مباحث النقد ليجعل النقد علما والبلاغة علما غيره ، وهما فى الحقيقة علم واحد يتعلقان بأمر واحد وهو جعل الكلام مطابقا لمقتضى الحال .

مقتضى الحال والخطابة :

وتعد الخطابة من أبرز فنون القول التى ينتفع فيها بميزان البلاغة نظرا لأن الحكم على الخطيب بالإجادة أو التقصير يكون فى نفس الوقت الذى يلقى فيه خطبته أو بعده بفترة وجيزة ، كما أنه يكون مع الناس بجسمه

---

(١) عيار الشعر ص: ٣٤٨

وصوته ، ويخاطب جمهورا متعدد الأحوال متنوع الثقافات والأعمـــار والاتجاهات ، مما يجعل مهمته بالغة فى الصعوبة ، ويجعل دراسة البلاغة أمراً ضروريا لمن يمارس مهنة الخطابة ، ولا نكون مغالين إذا رأينا أن نبوغ من ينبغ من الخطباء وتألق من يتألق منهم يكون بمدى التزامه بميزان البلاغة ومراعاته لما تستلزمه الأحوال لذلك كان من الغريب ألا تشتمل مقدمة البلاغة على ما يوضح قيمتها بالنسبة للخطابة ، وأصبح من الضرورى أن تحتوى مقدمة البلاغة على مايبين أهميتها للخطابة والخطباء .

وقد وردت أقوال متناثرة عن بعض البلغاء والأدباء تبين خضوع الخطابة لميزان البلاغة ، وتصلح أن تكون ضوابط لجعل كلام الخطباء موافقا لمقتضى الحال ، منها ما يتعلق بمظهر الخطيب حالة إلقاء الخطبة من الثبات وحسن الهيئة ، وخطاب كل مجتمع بما يناسب أفراده ، ومن صفات الخطيب الناجح كذلك أن يكون دائم المتابعة لجمهوره بالتفرس فى وجوههم ليعرف مدى استجابتهم لحديثه على نحو ما تعبر عنه قسمات وجوههم ارتياحا أو مللا فيقرر الإطالة أو التقصير أو العدول إلى موضوع آخر ، ومتابعة الحالة النفسية للمخاطبين ضرورية جدا لكل متحدث خطيبا كان أو مدرسا أو متحدثا ، حيث يجعل كلا منهما أى الخطيب والجمهور على صلة بالآخر وذلك من أهم عوامل التأثير والإقناع ، وبذا يدرك إخفاق الذين يخطبون أو يدرسون وجمهورهم بين متثائب ونائم ومتضجر ، وقد قال فيلسوف لتلميذه أفهمت ؟ قال نعم ، قال كذبت ، لأن دليل الفهم السرور ولم أرك سررت وقيل : نشاط القائل على قدر فهم السامع ، وقيل من سعادة القائل أن يكون المستمع إليه فهما : وقيل : من لم ينشط لاستماع حديثك فادفع عنه مئونة الاستماع[1] .

---

(١) المختار من كتاب : محاضرات الأدباء . الراغب الأصفهانى ص : ٢٩ .

فتلك نصائح على أعلى مستوى فى التربية ، وينبغى على كل من يمارس مهنة التعليم بجميع أصنافها ، والخطابة بكل وجوهها أن يجعلها موضع اهتمامه .

ومن الأمور التى ينبغى أن يراعيها الخطباء لتتفق خطبهم مع ميزان البلاغة تناسب الخطبة مع الموقف الذى تلقى فيه وافتتاحها بما يشير إلى صلتها بذلك الموقف ، وبذلك تختلف خطبة الجمعة عن خطبة العيدين وخطبة الصلح عن خطبة النكاح ، وخطبة ، التهنئة عن الخطبة فى مؤتمر سياسى ولا يلاحظ كثير من الخطباء ذلك فتنبذهم الجماهير ، وينفر منهم السامعون وقد دعيت لحفل قران وحضر المأذون ليلقى بين يدى العقد خطبة طويلة عن الطلاق بين الشريعة والقانون فكان حديثه ممجوجا من جمهور المدعوين لأنه لم يقع فى موطنه .

وقد قال الجاحظ : يجب التفريق بين صدر خطبة النكاح ، وخطبة العيد وخطبة الصلح (١)

وذكر صاحب زهر الآداب فى تعليقه على قول عبدالله بن المقفع : وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح ، وخطبة العيد وخطبة الصلح ، وخطبة التواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فانه لا خير فى كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذى إليه قصدت والغرض الذى إليه نزعت (٢)

---

(١) المرجع السابق ص : ٥٣

(٢) زهر الآداب : ١ / ١٠٥

كذلك من الأمور التى يراعيها الخطيب التزاما بميزان البلاغة ألا يسلك سبيلا واحدا فى خطبته ، بل يكون مستمر التجديد بين لحظة وأخرى فلا يلتزم نبرة صوتيه معينة ، بل يرفع صوته إذا اقتضى الحال ذلك ، ويخفضه إذا استلزم المقام خفض الصوت أيضا ، كما يعالج الموضوعات التى تمس حياة الجماهير بأسلوب وسط يناسب العوام ، ويكون مقبولا للخواص ، ولا يكون جميعه من واد واحد ، بل يتفنن فيختصر تارة إرادة التخفيف ويطيل تارة ثانية إرادة الإفهام ، ويكرر ثالثة بغية التوكيد ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجـلال المقام(١)

وإذا كانت الخطابة الدينية تعانى الآن من نقص فى عدد الخطباء وإعدادهم فإن من أهم ما ينبغى مراعاته فى إعداد الخطباء المصريين تزويدهم بأصول البلاغة ، ولذا لا أكون مفرطا حين أقرر أن تدريس البلاغة لطلاب قسم الدعوة بكليات أصول الدين لا يقل أهمية عن تدريسها لطلاب اللغة العربية .

كما ينبغى على إدارة الدعوة بوزارة الأوقاف أن تراعى أيضا ميزان البلاغة عند توزيع الخطباء على المساجد ، فيوجه لكل مسجد الخطيب الذى يلائم جمهوره ويناسب رواده ، إذ من العجب أن يخطب فى جمهور كبير يضم خلاصة المفكرين وعصارة المثقفين شاب حديث التخرج لم يدرب التدريب الكافى ولم يعد الإعداد المطلوب .

فتطبيق ميزان البلاغة كما نرى يعالج وجوها كثيرة من وجوه النقص فى الخطابة عموما وفى الخطابة الدينية بصفة خاصة .

---

(١) مشكل القرآن : ابن قتيبة ص : ٨ ط مراد ملا .

مقتضى الحال والكتابة :

وللكتابة أصول ينبغي مراعاتها في كل أنواعها ، وقد تناثرت تلك الأصول في مؤلفات البلاغيين والأدباء ، وعلى الرغم من أن معظم هذه الأصول تخضع لميزان البلاغة فإن البلاغيين المتأخرين لم ينبهوا على أهمية البلاغة في إجادة المكاتبات ولم يذكروا ما يجب ملاحظته لجعلها مطابقة لأحوال المكتوب إليهم .

وفي مقدمة تلك الأصول مكاتبة كل فرد بالأسلوب الذى يناسبه ، كما فعل رسول الله ﷺ إمام البلغاء وسيد الفصحاء في رسائله إلى الملوك والأمراء ، إذ كانت رسالته إلى كسرى عظيم الفرس بما يمكن ترجمته، لوضوح الألفاظ وسهولتها ، ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم الالفاظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله ، ككتابه لوائل بن حجر الحضرمي ، وكتابه لأكيدر صاحب دومة الجندل[١]

ومن أشراط الكتابة كذلك أن يتجنب الكاتب في رسالته استعمال الألفاظ الخاصة بالمادة التي يتخصص في دراستها كالنحو أو الفلسفة وغيرهما إلا إذا كان يؤلف في مادته أو يصنف في تخصصه فلا بد له أن يستعمل الألفاظ المتعلقة بها وبذلك شرف كلام أبي عثمان الجاحظ إذ أنه كان إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتاب ، وإذا صنف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، وكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره[٢]

---

(١) الصناعتين : ص: ١١٥ ، ١١٦

(٢) سر الفصاحة : ١٥٨

كذلك من الأمور الهامة التى ينبغى مراعاتها فى كتابة الرسائل : ملاحظة المركز الأدبى والاجتماعى للمرسل إليه وبذا تختلف رسائل الرؤساء إلى المرؤوسين عن رسائل المرؤسين إلى الرؤساء .

فرسائل الرؤساء تكون موجزة مختصرة أشبه بالتوقيعات لكثرة شواغلهم وضيق وقتهم إلا إذا كان الأمر يستدعى تطويلا .

ورسائل المرؤوسين إلى الرؤساء تختلف باختلاف أغراضها ، فرسائل الشكر يحسن فيها البعد عن الإسهاب وتجنب المبالغة فى المدح والإكثار من الثناء لأنه يؤدى إلى التبرم والتثاقل ويظهر صاحبه بمظهر المتكسب والمستجدى . وعندما تكون الرسالة تقريرا مرفوعا إلى الرئيس عن عمل من الأعمال يحسن فيها الإطناب والتوضيح .

أما رسائل الاستعطاف فينبغى ألا تغلب عليها الشكاية وسوء الحال وذكر الآلام والمصاعب لأنه يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه ، وذلك مما يكرهه الرؤساء ، لذا ينبغى أن تكون الشكوى ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة .

وفى مقام الاعتذار يتجنب الإسهاب وتبرز الأسباب التى كانت سببا فى الخصومة ، مع الظهور بمظهر المخطىء الذى يرجو السماح [1] .

ويحرص المرؤوس فى كل ما يكتبه إلى رئيسه على أن يكون مثالا للأدب والتواضع ، فلا يستعمل الصريح من أساليب الأمر والنهى فى طلب حاجته بل يطلب حاجته بأسلوب لا يبدو فيه آمرا أو ناهيا ، وذلك يعرف فى البلاغة بوضع الخبر موضع الإنشاء ، ويقول يحيى العلوى فى ذلك :

---

(١) الصناعتين ص : ١١٧ ، ١١٨

وأعلم أن من جملة الآداب الحسنة واللطائف المستحسنة أن تترك الخطاب لأهل المدائح بالأمر له بكذا، وكذا، وإنما تخرجه مخرج الاستفهام إعظاما للممدوح وإجلالا له عن أن يكون مأموراً، وما هذا حاله إذا فعل فإنه يكسب الكلام جمالا، ويزيده أبهة، ويعطيه كمالا، كما فعل البحترى فى قصيدة أنشدها قال :

فهل أنت يابن الراشدين مختمى بياقوتة تبهى على وتشرق

ولو قال ختمنى يابن الرشيد بياقوتة لم فى يكن الرشاقة والإجلال للخليفة كالأول »[1] .

فهل ترى هذه المقاييس التي ذكرها البلاغيون المتقدمون والأدباء السابقون بخصوص صنعة الكتابة شيئاً سوى العمل على جعلها مطابقة لمقتضى الحال ؟ ولما كانت الكتابة مائدة يلتف حولها معظم المثقفين والمتعلمين، بل كل من يحمل القلم فى يده أضحت دراسة هذه الأصول والوقوف عليها على درجة من الأهمية لكل من يكتب رسالة أو تكتب إليه رسالة أى إن معرفة البلاغة ليس مقتصرا على دارسى اللغة فقط بل ينبغى أن يلم بأصولها كل من يكتب ويقرأ . وبذلك تساهم البلاغة فى الحياة مساهمة فعلية وجادة .

مراعاة مقتضى الحال فى الحوار :

لا يعتبر الحوار هادفا ومفيدا إلا إذا التزم أفراده بأصول الحوار وآداب النقاش، وعلى كل من يشترك فى الحوار أن يقف على اتجاهات بقية أفراد الحوار وأن يعرف ميولهم ولو على سبيل العموم .

---

(١) الطراز: ٢- ٣١٦، ٣١٧

ومن آداب الحوار أن لايتجاوز المتكلم النطاق الذى يحــدده عمره ومستوى علمه ومنزلته الأدبية والاجتماعية ، وقد قال أبو الأسود الدؤلى لابنه يابنى : إذا كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من لم يبلغه سنك فيستثقلوك ولا بكلام من هو دونك فيستحقروك[1] .

ومن أهم ماينبغى مراعاته فى مجالات التحاور ومواطن النقاش ويتصل إتصالا وثيقا بجعل الكلام مطابقا لمقتضى الحال التدقيق فى استخدام الألقاب ومناداة كل إنسان باللقب الذى يليق به فى عرف التخاطب .

من ذلك لقب « افندم » فإنه يستخدم عادة وبصفة ملزمه فى الوسط العسكرى ، وقد ناديت أحد الضباط أثناء تأدية الخدمة العسكرية بالجيش المصرى[2] بلقب «يابك» ، فثار وغضب وأشار على بعدم تجاوز لقب «أفندم» إلى أى لقب آخر طالما كنت موجودا بين الضباط والجنود ؛ ولقب « باشمهندس » الذى يقال للمهندسين ولأصحاب الحرف المجيدين لها على سبيل التكريم والتشريف ، ولقب : « ياريس » الذى يستخدم فى محيط العمال ، ولقب : « أستاذ » الذى يكثر شيوعه واستعماله فى الوسط العلمى والثقافى ، ولقب « معلم » الذى يشيع استخدامه فى الأسواق وبين جماعات التجار ، فينبغى التنبه لمواطن استخدام هذه الألقاب بصورة مناسبة وعلى وجه ملائم للحال ، وذلك بمناداة كل إنسان باللقب الذى يلائمه ويتفق معه ، فيقبح أن ينادى الأستاذ بالريس ، والمهندس بالمعلم والضابط بيابك وغير ذلك .

وترى أن مراعاة ذلك على وجهه الصحيح يمثل تطبيقا لميزان البلاغة وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

---

(١) المختار من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ص : ٦ .

() وذلك فى المدة من شهر إبريل سنة ١٩٧٦ إلى آخر مايو سنة ١٩٧٧ . بعد أن أمضيت مايقرب من عامين مدرسا بكلية اللغة العربية .

كما يؤكد اتصال البلاغة بالحياة، وأن الناس يطبقون ضوابطها سواء الذين تعلموها أو الذين لم يحظوا بدراستها، فإنها تجنبهم الحرج فى كلامهم وتوفر لهم سبل الأمن والاطمئنان فى تخاطبهم مع رؤسائهم وأساتذتهم وأصدقائهم فلا يتكلمون إلا كلاما مناسبا ولا يتحدثون إلا حديثا مقبولا لذا كان من يطبق قوانين البلاغة أبعد الناس عن المؤاخذة، وأكثرهم سلامة من الوقوع فى الخطأ .

مقتضى الحال وأصول التربية :

بالتأمل فيما يبذله علماء التربية وخبراء التعليم من جهود وما يتوصلون إليه من نظريات للارتقاء بمستوى التعليم والسمو بأهدافه يتبين لنا أنها تلتقى مع قاعدة البلاغة وميزانها أعنى : المطابقه لمقتضى الحال .

إذ يعد من أهم أسباب نجاح النظام التعليمى لدى أى شعب من الشعوب. ملاءمة المناهج الموضوعة للمراحل المختلفة لكل منها، ومعالجتها لمشكلات المجتمع وخدمتها لأغراضه واشتقاقها من حاجاته ومتطلباته. وتلاؤم الطرق المستخدمة فى العملية التعليمية مع طبيعة هـــذه المناهج فى كل مراحلها ومع الطلاب على اختلاف مستوياتهم وتباين أحوالهم، فالغرض من التعليم فى المدن الساحلية يختلف عنه فى البيئة الصحراوية، وعنه فى المدن الصناعية، وعنه فى البيئة الزراعية ودرس البلاغة لطالب المرحلة الثانوية يختلف عنه لطالب المرحلة الجامعية، ويختلف عنهما مع طالب الدراسات العليـا .

ويقدم الدرس البلاغى الآن لفريقين من الطلاب :

الفريق الأول : طلاب المعاهد والمدارس الثانوية، بقصد تنمية حاسة

التذوق وملكة النقد لديهم ، لكنه لايحقق ذلك الهدف أو يكاد يحققه بعض الشيء فى مدارس وزارة التربية والتعليم .

الفريق الثانى : طلاب الجامعات الذين يتخصصون فى دراسة اللغة العربية ، ليعمل معظمهم بعد التخرج فى مجال تدريس اللغة العربية والتربية الدينية بالمدارس الإعدادية والثانوية ، وتبين لنا أن الدرس البلاغى بالنسبة لكثير منهم لايحقق الهدف المرجو منه ، لضآلة الجانب التطبيقى فيه ، والذى يعد زاد الطلاب فى حياتهم العملية وبعد تخرجهم .

أى إن الدرس البلاغى بصورته الراهنة لايلائم مقتضى الحال ، ويحتاج إلى تطوير وتجديد يجعله مطابقا لمقتضى الحال حتى يحقق أهدافه .

الدرس البلاغى لطلاب جامعة الأزهر :

ولما كان الدرس البلاغى يراعى فيه مايراعى فى معظم المواد من منهج معين وطريقة محددة يختلفان من مرحلة لغيرها . فإن شيئاً آخر ما ينبغى مراعاته ضمانا لنجاح الدرس البلاغى ، وهو تلاؤمه مع تخصص المجموعة التى يلقى عليها ، بحيث يكون معينا للطلاب على تفهم مواد تخصصهم ، ولايكون غريبا عليهم ، والبلاغة العربية زاخرة بالمواد الخصبة ، التى يجعلها المدرس الماهر مناسبة لكل فن وملائمة لكل علم .

ولما كانت البلاغة تدرس فى كثير من كليات جامعة الأزهر فكنت أحرص أول ماأحرص على أن يكون درس البلاغة متلائما مع البرنامج العام لكل كلية ، بحيث كنت أسلك أكثر من طريقة فى تناول الدرس الواحد بما يتفق ويلتقى مع نوع تخصص الطلاب فى كل كلية .

وكنت أطبق فى ذلك مقاييس البلاغة قبل نظريات علماء التربية كما كنت أدرك تماماً أن الدرس البلاغى أدى هدفه إلى حد ما ، وكان لطلاب كل كلية كدروسها الأساسية وليس بالدخيل عليها .

وأسوق على وجه السرعة لمحة عن أبرز المميزات ، وأوضح السمات ، التى اتسم بها الدرس البلاغى فى الكليات التى درست لطلابها :

ففى كلية اللغة العربية اختلفت الطريقة التى تناولت بها الدرس البلاغى من شعبة لأخرى .

فالدرس البلاغى لطلاب الشعبة العامة كنت أتناوله بالطريقة التقليدية مع وضوح العرض ، واستنباط القواعد من النصوص الكثيرة والمتنوعة ، وقد وضعت فى الاعتبار أن معظمهم يعملون بعد تخرجهم مدرسين للغة العربية . مما جعلنى أقدم المادة العلمية للدرس بطريقة تربوية فى أسلوب منظم مع إثارتهم وجذبهم بين لحظة وأخرى بأسئلة موجزة وسريعة ، وتدريبهم على البحث السريع بتكليف بعضهم بالكشف عن معنى بعض الكلمات ، ومعرفة اسم السورة ، وموطن الآية منها ، مع الإلتزام فى المحاضرة والنقاش بالأسلوب العربى الفصيح .

ومع طلاب شعبة التاريخ والحضارة كنت أضع فى حسبانى أن عدداً كبيراً منهم يعمل فى تدريس اللغة العربية ، مما جعلنى أتناول فى تحليل النصوص معظم ما تتضمنه من أسرار لغوية وبلاغية كمعين لهم على تدريس مادة النصوص الأدبية ، مع مراعاة الأسس التربوية فى العرض والمناقشة والتدوين على السبورة .

كما كنت أطيل الوقوف عند المناسبة التى نزلت فيها الآية والموقف الذى ذكر فيه النص ، بما يعين على تذوق الأسرار البلاغية ، ويمزج بين

التاريخ والبلاغة ، كقوله تعالى : « فأوجس في نفسه خيفة موسى »[1]

فقد ذكرت الآية شاهداً على تقديم بعض المعمولات على بعض رعاية للفاصلة المختومة بالألف ، وبالتأمل في الموقف الذي ذكرت فيه الآية يظهر المغزى الحقيقي من تقديم الجار والمجرور وتأخير الفاعل على خلاف الأصل، وعلى غير المعهود، استجابة للمقام ، ومطابقه لمقتضى الحال ، إذ أن الموقف هو قصة المبارزة بين سيدنا موسى عليه السلام وسحرة فرعون وماكان من فزع سيدنا موسى وشديد خوفه حينما خيل إليه أن عصيهم وحبالهم تمابين تسعى ، فتصوير الرعب الشديد الذي ملأ قلب موسى وسيطر على نفسه بعد محل الاهتمام الأول ، وبذا يدرك المغزى الحقيقي من تقديم « في نفسه » إذ النفس موطن الخوف والأمان ، وأعقب ذلك المفاجأة المذهلة التي زال الخوف على أثرها من نفس موسى ، حين ألقى عصاه فابتلعت ما يأفكون ، وألقى السحرة سجداً . قالوا آمنا برب هرون وموسى .

فيعين ذلك كما ذكرنا على تفهم الأسرار البلاغية الأصيلة للتراكيب ، كما يعين على إدراك ما يتضمنه القصص القرآني من عبر ومواعظ .

وتلك تعد في نظرى أنسب الطرق وأنجحها لتدريس البلاغة لشعبة التاريخ والحضارة

ومع طلاب شعبة الصحافة ، كنت أركز على تحديد المقام الذي قيل فيه النص ، ومدى مطابقة النص للمقام وتناسبه معه ، مبينا أن الكاتب البارع والصحفي الماهر هو الذي تجيء مقالاته وأحاديثه متناسبة مع الأحداث التي يتناولها .

---

(١) الآية : ٦٧ سورة طه

وكنت أقدم بين يدى الطلاب بعض الأساليب التى لا تتفق مع قوانين البلاغة ، مع توضيح مكان الخطأ منها مثل : هل استذكرت أم نمت [١]

ومحمداً أكرمت وخالداً وما عليا أهنت ولا أحداً من الناس ، وراكباً قدمت وماشياً ويوم الخميس استرحت ويوم الجمعة ، وبهذا أمرتك وغيره ، وغيرها من الأساليب التى خرجت عن دائرة البلاغة [٢]

كما كنت أسوق لهم أساليب مثيرة ، مبينا سر إثارتها .

وفى تقديم الدرس البلاغى لشعبة اللغة العربية بكلية التربية كنت أراعى إبراز ما يتضمنه النص من معان أخلاقية وأدبية بالقدر الذى لا يخرج بالدرس البلاغى عن هدفه . مع الأخذ بالأسس التربوية من المحافظة التامة على موعدى مع الطلاب وموعدهم معى ، وإعداد السبورة وتنسيقها ، وإشراكهم فى حوار منظم حول بعض المسائل ، وتكليف عدد منهم بإعداد بعض الدروس التى يتضمنها منهج الدراسة ، وإلقائها على بقية إخوانه فى نهاية العام ، مع الأخذ بمبدأ الثواب والعقاب بالثناء على المجد وإيقاظ همة المتكاسل .

فكان الدرس البلاغى لطلاب كلية التربية كأى درس من دروس التربية ، ينال تقدير الطلاب ويحظى باهتمامهم الكامل بما تجلى أثره واضحا فى اكتمال عدد الطلاب فى كل المحاضرات .

---

(١) التناقض بين هل وأم المتصلة .
(٢) التناقض بين صدر الكلام وعجزه فى كل .

وقد بدأت الدرس البلاغي مع طلاب كلية اللغات والترجمة بمحاضرة وضحت فيها أهمية اللغة العربية والبلاغة كعلم من علومها لدارسي اللغات الأجنبية، وأن الترجمة لا تكون وافية، ولن يتمكن المترجم من إخراج مايترجمه كاملا أوشبه كامل إلا إذا كان متعمقا فى فهم لغته الأساسية. لذا تعد دراسة اللغة العربية لطلاب اللغات والترجمة مادة أساسية وليست ثانوية أو تكميلية كما تصور الطلاب ذلك فأغفلوها وأهملوا دراستها سنوات كثيرة

وقد نبهتهم كذلك إلى أن الدرس البلاغي يمكنهم من فهم نصوص القرآن والسنة النبوية فهما سليما ويعينهم على تقديم الإسلام نقيا واضحا لأبناء الإسلام الذين يبعثون إليهم، وهو الهدف الأصيل الذى أنشىء من أجله معهد اللغات والترجمة بالأزهر، بل كان يعد التطوير الحقيقي للازهر حيث يمكن الأزهر من نشر الإسلام واللغة العربية فى شتى أرجاء العالم، وقلل من تحقيق ذلك الغرض اتجاه التطوير اتجاها آخر تجلى أثره فيما هو كائن الآن من كثرة عدد الدارسين والمتخرجين من الأزهر أطباء ومهندسين وتجاريين ممن يزيدون عن حاجة الدولة بل يمثلون عبئا عليها ونقص وقلة عدد الدارسين والمتخرجين من الأزهر أئمة وخطباء ومدرسين للغة العربية فكنت أعمل على أن يتفق الدرس البلاغي لطلاب اللغات والترجمة مع المعانى السابقة، مكثرا من تقديم النصوص القرآنية والنبوية مبينا ماتتضمنه من أسرار بلاغية، وماتشتمل عليه من حكم دينية، باللغة العربية السليمة، وكان لذلك النهج أثره الواضح فى إقبال الطلاب على درس اللغة العربية، وحرصهم على محاضرة البلاغة، بعد أن تغير فهمهم لها شكلا وموضوعا.

أما الدرس البلاغي لطلاب السنة التأهيلية فقد حرصت كذلك حرصا

بالغا على ضرورة تناسبه مع تخصصات الطلاب فى كلياتهم التى وزعوا عليها ».[١]

ولما كنت أدرس لمجموعات (الطب والهندسة والزراعة والعلوم) ، فكان درس البلاغة درسا فى إعجاز القرآن العلمى والبلاغى ، موضحا الأسرار البلاغية فى القرآن الكريم بما يذكره العلماء وما تقرره التجارب الصادقة التى تزيدنا اقتناعا بقدرة الله . فمثلا فى الكلام عن تشبيه الجبال بالأوتاد فى قول الله سبحانه : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا[٢] » كنت أوضح معنى التشبيه بما يذكره علماء طبقات الأرض من أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض الصلبة فى جملتها دائمة الاضطراب بسبب دوام اختلال التوازن القائم بين جوف الأرض المنصهر وما يعانى من ضغوط عالية وقشرتها الصلبة وما تتعرض له من عوامل التعرية ، فالجبال إذا للأرض كالأوتاد التى تحفظ توازن الخيمة عندما تشد إليها ».[٣]

وما يذكره علماء النبات عن معنى التلقيح ، مما يوضح الاستعارة المكنية فى قوله سبحانه : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »[٤] من أن الرياح هى العامل الأساسى فى تلقيح كثير من النباتات وأنها أيضا من العوامل الأساسية بل العامل الأول الذى يسبب إثارة السحب وانعقادها فى السماء لتعطى المطر[٥] .

---

(١) كان ذلك فى العام ٧٧ - ٧٨ الجامعى

(٢) سورة النبأ : ٦ ، ٧

(٣) من الآيات الكونية فى القرآن محمد جمال الدين الفندى ص : ٨٥ ، ٨٦

(٤) سورة الحجر : ٢٢

(٥) المرجع السابق ص : ٣١

وقد رأيت أن تلك هى الطريقة الملائمة لحال هذه المجموعات من الطلاب وأن الدرس البلاغى إن قدم لها على النحو الذى يقدم لطلاب كلية اللغة العربية فإنه لا يكون مناسبا لمقتضى الحال، وبالتالى لا يحقق هدفه ، كما تمثلت نتائج هذه الطريقة فى : وصل الدرس البلاغى بالحياة ، والوقوف بصفة عملية على مسايرة القرآن لكل العصور واشتماله على معظم العلوم الدينية والدنيوية وتوجيه هذه الأجيال الجديدة إلى دراسة النظريات العلمية والوقوف عليها بروح دينية إسلامية وليس بروح ماديه متشككة .

فتلك لمحات خاطفة عن تجربة ذاتية لى مع الدرس البلاغى لطلاب جامعة الأزهر، ونلاحظ أن كثيراً من معالمها لا يخرج عن ميزان البلاغة وهو المطابقة لمقتضى الحال .

ودرس البلاغة المطابق لمقتضى الحال إذا هو الذى يتلاءم محاضرة وتأليفا مع اتجاهات وأحوال الطلاب الذين يلقى عليهم .

كما تبين أن البلاغة تتعلق بمعظم العلوم، وتضرب بسهم فى كل واد، وأن من حكموا عليها بالضيق والعزلة وقفوا عند تفسير المتأخرين ولم يتجاوزوه

الفصل الخامس

البلاغة والمجتمع

يتناول هذا الفصل النقاط التالية :

١ – البلاغة فى كلام كل الناس .

٢ – الأمثال العربية القديمة.

٣ – الأمثال العربية الحديثة وفنون البلاغه .

البلاغة فى كلام كل الناس :

كما تشتمل أساليب العوام ولغة الحديث والتخاطب بينهم على مجموعة كبيرة من الكلمات العربية الفصحية ، والعبارات السليمة والصحيحة ، تشتمل كذلك على قدر كبير من وجوه البلاغة ، إذ تزين الفنون البلاغية كثيرا من أساليب العوام ، بل إن كثيرا من هذه الأساليب يتفق تمام الاتفاق مع ضوابط البلاغة ، ويتطابق ومقاييسها .

وذلك يعنى أن البلاغة فطرية فى الكلام ، وأنها مركوزة فى طباع الناس ، وأن البليغ هو الذى فطر على البلاغة وطبع عليها ، أما دروس البلاغة وما تضم من مسائل ، وما تحوى من مباحث فإنها تعين على تفهم تلك البلاغة الفطرية وتساعد على معرفة أسرارها . (١)

فالبلاغة إذا على لسان كل واحد من الناس ، وفى اللغة الخاصة بكل طائفة منهم ، وقد يجمع كلام أحد الذين لم يدرسوا البلاغة ولم يعرفوا شيئاً عنها من فنون البلاغة وألوانها المناسبة قدرا يفوق ما يشتمل عليه منها كلام كثير ممن أمضوا حياتهم ، وقطعوا عمرهم فى دراسة البلاغة وتتبع مسائلها .

وتمثل البلاغة لدى كل فرد من الناس أمر ضرورى يحتمه ما اختص الله به الإنسان من نعمة البيان ، وإذا كان البيان أسلوبا من أساليب البلاغة

---

(١) وفى ذلك يقول المرحوم أحمد حسن الزيات : (البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهبة لا صناعة مكسوبة فمن حاول أن ينالها بإعداد الآلة وإدمان المزاولة وطول العلاج وهو لا يجد أصلها فى فطرته ، أضاع جهده ووقته فيما لا رجع منه ولا طائل فيه ... والناس كلهم يتكلمون : ولكنهم ليسوا جميعاً خطباء ، والمتعلمون كلهم يكتبون ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا بلغاء .. والموسيقيون ألوف فى كل أمة ولكن الذين يستطيعون أن يؤلفوا رواية غنائية نفر قليل) دفاع عن البلاغة ص : ١١ ، ١٢

أو وجهاً من وجوهها أو هو البلاغة فذلك يؤكد ما ذكرناه من أن البلاغة لكل الناس أمر فطرى وشىء ضرورى ؛ ونعمة من الله لهم على تفاوت ما بينهم بشأنها بمثل تفاوت ما بينهم فى كل نعمة .

ومن ثم نقول : إن من وجوه التجديد فى الدرس البلاغى ، ومن مظاهر ربطه بالحياة ومزجه بالمجتمع ، والقضاء على عزلته وجموده ، وسهولة تناوله ، ويسر تقبله، أن يتخذ من أساليب الناس موردا لشواهده ، مع موارده المألوفة وذلك بأن ينظر فى كلام الناس ليؤخذ منه ما يوفق الشواهد العربية الأصيلة فى الفن البلاغى الذى وردت ضمنه وفى السر البلاغى الذى يتمثل فيها ؛ وكلام الناس يزخر بوجوه البلاغة وفنونها كما ذكرنا . وبذا يدرك الدارسون أن البلاغة التى يدرسونها ليست علماً غريباً أو مادة قديمة، بل فنونا تدور على ألسنتهم، وتنتشر فى كلامهم .

ونوضح فيما يلى بعض النماذج التى تؤكد وجود البلاغة فى كلام كل منا

فالطفل يستخدم البلاغة فى كلامه بفطرته حين يستعمل أسلوب القصر فى بعض المواقف التى تستلزم القصر كقوله : لا آكل إلا هذا الطعام ـ أو لا أفعل إلا ذلك الشىء ـ بدلا من قوله : آكل هذا الطعام ـ أو أفعل ذلك الشىء ـ وكقوله : ما أنا الذى كسرت الكوب ـ بنفى كسره له وإثباته لغيره دون التصريح باسمه ـ وذلك بدلا من قوله : لم أكسر الكوب ـ الذى لا يفيد شيئا أكثر من نفى كسره له،على نحو ما ذكر البلاغيون من أن تقديم الضمير وإيلاءه حرف النفى والإخبار عنه بعد ذلك بالجملة الفعلية يفيد أن الفعل قد وقع ولا يشك فى وقوعه ، وأن وقوعه من غير المتكلم لا منه مثل : ما أنا قلت هذا ـ أى لم أقله وأن غيرى الذى قاله .

ومدرس البلاغة بذلك يحاول أن يؤلف بين ما يناقشه من مسائل البلاغة وما يكون شاهدا عليها أو يجىء متوافقا معها من أساليب الناس ، فيدرك

الطلاب آنذاك أن دروس البلاغة ليست غريبة عليهم ، بل إنها تدور على ألسنتهم ، وتتضمنها أساليبهم .

فمثلا فى تخريج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، وفى وضع المظهر موضع المضمر أو الإظهار فى مقام الإضمار ينبه المدرس طلابه إلى أن كثيرا من أغراضه تتردد فى أساليب الناس ، كالوالد يقول لابنه : أبوك يطلب منك كذا - والرئيس يقول لأحد موظفيه : الرئيس هو الذى قرر كذا بدلا من : أنا فى كل . وذلك لقصد تحصيل المأمور به وتربية المهابة . والتلميذ الذى يقول لأستاذه : تلميذك يلتمس رضاك بدلا من : أنا ألتمس رضاك ، لما يفيده التعبير بالاسم الظاهر من إظهار الأدب والخشوع التماسا لنيل المراد . وكقول العامل لرئيسه : يسمح لى الرئيس بيوم أستريح أو أزور فيه مريضا بدلا من : اسمح أو أعطنى أجازة فرارا من صيغة الأمر التى تشعر بالاستعلاء المنافى للأدب .

وكاستعمال كثير من أساليب الإنشاء فى غير أغراضها الحقيقية لأسرار بلاغية فمعظمها مما يشتمل عليه كلام الناس كقول الأب لابنه الصبى منذرا ومتوعدا : نم كثيرا أو العب طويلا ، وأهمل دروسك بمعنى إنه سيلقى عقابا شديدا على فعل ذلك .

فالاستشهاد بالأساليب العربية من كلام العوام على بعض النكات البلاغية يثرى البلاغة ، ويعدد مواردها ، ويمزجها بالحياة ، ويجعل دروسها سهلة التناول ، قريبة المأخذ .

الأمثال العربية القديمة :

ومن أهم الجوانب التى ينبغى أن يلتفت إليها ويعتنى بها فى هذا المجال الأمثال العربية القديمة والحديثة ، ففيها زاد وفير للبلاغة إذ نلتقى فيها بحكم وتجارب مفيدة ، ونقف على أسرار بلاغية تضمنتها واشتملت عليها ، وذلك

يدعو إلى الاهتمام بها فى الدرس البلاغى ، إذ لم تحظ الأمثال العربية بنصيب وافر من جهد البلاغيين إلا فى نطاق ضيق عند الكلام عن الاستعارة التمثيلية والاستشهاد عليها ببعض الأمثال العربية .

وقد وقع المثل فى القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ كما نرى كثيرا من الأمثال فى كلام الناس ، ومعظمها تتفق مع أمثال عربية قديمة ، ومع بعض أشعار العرب .

فما جاء من الأمثال فى القرآن الكريم كشاهد على التشبيه قوله تعالى : ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون[1] ، فقد شبه ثبات الإيمان فى قلب المؤمن بثبات جذع الشجرة وشبه صعود عمله إلى السماء بارتفاع فروعها فى الهواء ، وشبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه فى كل زمان بما ينال من ثمرتها كل حين وأوان .

ومن الأمثال النبوية التى يستشهد بها ضمن شواهد التشبيه أيضاً قوله ﷺ : « إن من البيان لسحرا » أى أن بعض البيان يعمل عمل السحر ، ويضرب فى استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة وقد شبه البيان بالسحر لحدة عمله فى سامعه وسرعة قبول القلب له .

ومن الأمثال النبوية أيضاً التى تذكر ضمن أمثلة الاستعارة قوله عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » فقيل له : وماذاك يارسول الله؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، والدمن : جمع دمنه ، وهى : ما تدمنه الإبل والغنم من أبوالها وأبعارها - فربما نبت فيها النبات الحسن فيكون منظره حسنا أنيقا ومنبته فاسدا فشبه به المرأة الحسناء فى المنزل السوء .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٣ - ٢٤

ومما ورد من الأمثال فى كلام الإمام على كرم الله وجهه ويحسن الاستشهاد به على التشبيه الضمنى أو الاستعارة التمثيلية قوله رضى الله عنه : —

« إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » فقد ذكر فى تفسيره أن عليا رضى الله عنه قال : إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة : أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شىء لاجتماعهن عليه ، فقال الثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة ، فقالا : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إنى آكلك لامحالة ، فقال : دعنى أنادى ثلاثا ، فقال : افعل ، فقال : ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ثم قال على رضى الله تعالى عنه : ألا إنى هنت ويروى : وهنت يوم قتل عثمان يرفع بها صوته . وهذا المثل يضرب للرجل يرزأ بأخيه (١)

ولما كانت لغتنا وأدبها يزخران بكثير من الأمثال التى ألفت فيها كتب كثيرة ، فإن الدرس البلاغى ينبغى أن يدعم بها ويتخذ منها موردا ليضمن بذلك خدمته للأدب ، ويتحقق مزجه بالحياة والمجتمع .

الأمثال العربية الحديثة وفنون البلاغة :

ولا يقف دعم الدرس البلاغى بالأمثال العربية عند القديم منها ، بل ينبغى أن يتجاوزها إلى الأمثال العربية الحديثة ، فكثير منها كما سنرى يتفق مع أمثال وأشعار عربية قديمة ، كما أن كثيرا منها يحسن الاستشهاد به على لون بلاغى معين ، ولذلك يجمل بمدرس البلاغة وهو يعرض لأى فن بلاغى أن

---

(١) مجمع الأمثال : ابو الفضل الميدانى ج ١ ص : ١ - ٧ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد .

يأتى له من الأمثال الحديثة بما يوافقه ويستشهد عليه بعد أن يضبطه الضبط العربى السليم ، وينقيه من لحن العامة وتحريفها .

وأعرض فيما يلى بعضا من الأمثال العربية الحديثة التى يتمثل فيها لون بلاغى معين أو أكثر من لون ، مع شىء من التعديل والضبط فى صورتها لتنسجم مع صورة الأسلوب العربى ، وإن كان بعض من هذه الأمثال الحديثة يذكر بصورته التى ورد عليها قديما دون أن يمسه تحريف أو يلحق به تغيير :

ميزان البلاغة :

« التاجر قال لابنه : أعط كل مشتر شكله »

وذلك بأن يقدم لكل مشتر ما يناسبه من السلع حتى لا ينفر المشترين منه .

وترى أن ذلك المثل يلتقى تماما بموضوع البلاغة الذى تعرفه فى مخاطبة كل إنسان بالأسلوب الذى يناسبه ، مصداقا لقولهم : « لكل مقام مقال »

التشبيه :

ونجد كثيرا من العبارات والأمثال الحديثة التى تجرى على ألسنة الناس وتصلح أن تعد ضمن شواهد التشبيه كقولهم : فلان كالثعبان ، وعينه كالرصاص ، ولسانه كالمبرد ، وقلبه حديد ، وبيته جنة ، وما يذكره الباعة فى ترويج بضاعتهم مثل : ورد يا طماطم ، ولوز يا ترمس ، وغيرها ومن الأمثال[1] : « لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك » بمعنى أن

---

(١) الأمثال العاميه : أحمد تيمور ص ٢٠٤ وأصل المثل : الخواجه قال لابنه كل زبون وأعطه شكله .

صون الإنسان لنفسه يتمثل فى صون لسانه عن العثرات ومواطن الزلل — وفيه مقابلة وسجع إلى جوار التشبيه .(١)

ومنها : عداوة الأقارب كلسع العقارب - أى إنهم يكونون أشد عداوة الشخص إذا عادوه - وفيه جناس وسجع مع التشبيه .(٢)

ومن التشبيه المحذوف الوجه والأداة الحكمة التى تجرى مجرى الأمثال فى الحث على الصبر عند الشدائد : « الصبر مفتاح الفرج »

ومما يحسن الاستشهاد به على التشبيه الضمنى من أمثال العامة قولهم : « ابن الذئب لا يربى » لمن ربى ولدا أصله غير كريم ، فلم يكن وفيا لمن رباه ؛ كما أن الذئب لا يقتنى ولا يربى لأن طباعه تغلب عليه فيؤذى من رباه وأحسن إليه ، والتشبيه كما ترى يلمح من سياق الكلام أى أنه تشبيه ضمنى لعدم التصريح به ، وفى معنى المثل السابق يروى أن أعرابية ربت جرو ذئب فلما كبر قتل شاتها فقالت :

بقرت شويهتى وفجعت قلبى   وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا   فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء   فلا أدب يفيد ولا أديب(٣)

ومما يمكن الاستشهاد به على المجاز المرسل من كلام الناس :

« العين لا تكره إلا الأحسن منها » فالمراد بالعين الشخص ، لأنه ينظر

---

(١) المرجع السابق : ٢٢٤

(٢) المرجع السابق ص ٣١٧

(٣) المرجع السابق ص : ٥

بعينه ، ، ومعناه : أن الشخص لا يغتاظ إلا من هو أعلى منه مقاما وأحسن حالا ، ولا يحزنك بغضه لك ، فإنك لو لم تكن أرقى منه ما أبغضك (١).

ومما يمكن الاشتشهاد به على الاستعارة من تعبيرات العوام :

« عندما نجح طار من الفرح - وغرقان في الكتب - ويعوم في المال ومات من الضحك » .

ومن شواهد الكناية قولهم : « بيته مفتوح - كناية عن الجود والكرم « ومسحوب من لسانه - كناية عن كثرة كلامه » .

« وماء من تحت تبن - كناية عن الداهية الذي يظهر خلاف ما يبطن كما يخفى التبن الماء إذا كان على وجهه ، والعرب تقول في أمثالها : « كالسيل تحت الدمن » يضرب لمن يخفي العداوة ولا يظهرها .

و « أذن في مالطة » كناية عن عمل غير مثمر ، وقول غير مسموع لأن مالطه سكانها غير مسلمين ، فإذا أذن فيها لا يجيبه أحد ، أي لا حياة لمن تنادي .

و « باضت له في القفص » أي لم تبض دجاجته في مكان بعيد ، بل باضت له في قفصه ، كناية عن تيسر الأمور ومواتاة الحظ (٢) .

أما وجوه البديع فتضم الأمثال العربية في كلام العوام كثيراً منها لا سيما الجناس والسجع والطباق والمقابلة للأثر الموسيقى الناجم عن السجع والجناس وما يحدثه ترقب الضد والتشوق إليه في الطباق والمقابلة من إثارة واهتمام .

فمن الجناس قولهم : « اللقم تمنع النقم » أي الإحسان وإطعام

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٢

(٢) الكنايات العامية : أحمد تيمور ط ثالثه ص : ٧ — ١١

الفقراء يدفع المصائب — وهو فى معنى المثل العربى : « اصطناع المعروف يقى مصارع السوء »(١)

و « الشر إن بات فات » ، أى الخصومة والمشاحنة إن تركت ليلة واحدة هدأت، وهو من أحسن الوسائل لصرفها .(٢)

ومنه أيضاً : « الدراهم مراهم تجعل للعويل مقدارا وبعد أن كان بكرا سموه الحاج بكار »

العويل معناه : الوضيع ، أى النقـــود كالمراهم تداوى علل الوضاعة وتسترها وتعلى قدر الوضيع بين الناس ، وتحملهم على الزيادة فى اسمه وألقابه لما وقر فى نفوسهم من تعظيم الغنى ، وأصله قول قدماء المولدين فى أمثالهم « الدراهم مراهم » فزادت العامة فيه هذه الزيادة لتوضيحه ، ومن الحكم المروية : المال يسود غير السيد ويقوى غير الأيد – وقال الشاعر :

الفقر يزرى بأقوام ذوى حسب ... وقد يسود غير السيد المال

وقال آخر :

إن الدراهم فى المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجمالا(٣)

ومن أمثال الجناس والسجع : « امش على عدوك جوعان ، ولا تمش عليه عريان » أى لا تظهر له حالك فيشمت بك .

ومن الأمثال على الطباق قول القائل : « إن تفلت إلى أعلى جاءت على وجهى ، وإن تفلت إلى أسفل جاءت فى حجرى »(٤)

---

(١) الأمثال العامية ص: ٤٢٣

(٢) الأمثال العامية ص ٢٨١

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢١٠

(٤) تفلت : أى بصقت .

أى إنه مصاب فى الحالتين بما يفعل ، ويضرب للقريب لا يستطيع إساءة أقاربه بمثل إساءتهم إليه لأن ما يصيبهم من أذى أو شين يصيبـــه كما قال الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمى

ومثله للمتلمس :

ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى   جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه   بكف له أخرى فأصبح أجذما[1]

ومنه قولهم : « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان » وهو مثل عربى أورده الميدانى فى مجمع الأمثال ولم تغير العامة ألفاظه فليس فيه ما يصحح غير اللحن[2]
وقولهم : « صام وأفطر على بصله » أى صام ثم أفطر على شىء زهيد لا يغنى عن الجوع ، وهو يضرب لمن يمتنع عن شىء مدة ثم يقـــع فى أردأ أنواعه[3] .

ومن المقابلة : « كل طعام حبيبك تسره ، وكل طعام عدوك تضره » .

وقولهم : « إن كان الرجل بحراً تكون المرأة جسرا » أى إن كان الرجل فى طغيانه وسوء خلقه كالبحر يخشى منه فلتكن المرأة العاقلة المدبرة كالجسر له تمنع أذاه وتكبح جماحه بحسن سياستها ، كما يمنع الجسر مياه البحر من إغراق الحقول[4] .

---

(١) المرجع السابق : ص : ٧٩
(٢) المرجع السابق : ص : ٣٣٤
(٣) المرجع السابق : ص : ٢٩٢
(٤) ص ١١٤

ومن الشواهد على العكس والتبديل قولهم : « ليس كل من نفخ طبخ ولا كل من طبخ نفخ » ـ ويراد به : أن الغايات حظوظ قد تدرك بلامشقة ، وقد يحرم منها من تعب فى سبيل الوصول إليها(١) .

وقولهم : « العنب إن صح فسد وإن فسد صح » ، وذلك بعد عصره ، فإنه إن صح يصير خمرا ضررها أكثر من نفعها ، وإن فسد يصير خلا غير ضار ، وهو بضرب فى الشىء النافع يتحول إلى ضار ، والشىء الضار الذى ينقلب نافعاً .

ومن الأمثال على التقسيم : « قال ياجحا عد غنمك قال : واحدة نائمه وواحدة قائمه » ـ وهو يضرب للشىء القليل الذى لايحتاج لعد(٢) .

وكثير من الأمثال التى تدور على ألسنة العوام تتفق مع بعض أشعار العرب فى معناها كما مر ، ومنه أيضا قولهم : « كثرة العتـــاب تفرق الأحباب » فهو فى معنى المثل العربى : « كثرة العتاب تورث البغضاء » وفى معناه قول بشار :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه(٣)

ومنه أيضاً المثل القائل : « النار تخلف رماداً » أى إذا خمدت النـار لايتخلف عنها إلا الرماد ، وهو يضرب للكريم يأتى بالولد الأحمق اللئيم ، وفى معناه قول بعضهم :

إذا مارأيت فتى ماجـــدا ... فكن بابنه سيء الاعتقاد

---

(١) ص : ٢٤١
(٢) ص : ٣٧٣
(٣) الأمثال العامية ص : ٣٩٢

فلست ترى من نجيب نجيبا ولا تلد النار غير الرماد[١]

وكذلك قولهم : « ساعة لقلبك وساعة لربك » أى أجعل ساعة لقلبك وانشراحه وساعة لعبادة ربك ، وهو يضرب للاعتدال فى الأمور ، كقول القائل :

ولله منى جانب لا أضيعه وللهو منى والخلاعة جانب[٢]

كما تتفق كثير من أمثال العوام مع أمثال عربية قديمة كقولهم : طوبه على طوبه تخمل المعركة منصوبه - فإنه مرادف للمثل العربى معظم : النار من مستصغر الشرر[٣] .

وقولهم : « شدة وتزول » ، وهو يضرب للصبر عند الشدائد التى لا تلبث أن تزول ، ولاسيما فى حالات المرض ، والعرب تقول فى ذلك : غمرات ثم ينجلين - والغمرات : الشدائد[٤] .

وقولهم : « خذ الرفيق قبل الطريق ، والجار قبل الدار » أى ابحث عن رفيقك فى السفر قبل السفر وأخبره فربما لا يوافق ، وإذا أردت شراء دار فسل عمن يجاورك قبل الشراء ، وهو من قول العرب فى أمثالها : « الرفيق قبل الطريق »[٥] .

وقولهم : « رجعت المياه لمجاريها » حين تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل انقطاعها ، فهو فى معنى المثل العربى : عاد الأمر إلى نصابه[٦] .

فدعم الدرس البلاغى والاستشهاد عليه بهذه الأساليب وما ماثلها بعد

---

(١) ص : ٤٨٦ (٢) ص : ٤٦٨
(٣) ص : ٣٠٧ (٤) ص ٣٨٨
(٥) ص : ١٩٥ (٦) ص : ٢٢٥

وضعها فى القوالب العربية السليمة يعد كما ذكرنا مظهرا من مظاهر تجديد الدرس البلاغى ، ومزجه بالحياة ، ووصله بالأدب ، وإبعاد العزلة والجمود عنه ، وقد جربت ذلك فى درس البلاغة ، فكانت النتيجة طيبة وكان الدرس ناجحا ، ومن السمات الواضحة لذلك النجاح : هيام الطلاب بدرس البلاغة وإقبالهم عليه ، بعد أن تأكد لهم أن البلاغة التى يدرسونها هى التى تدور فى كلامهم وتجرى على ألسنتهم .

موجز البحث

اشتمل البحث على : مقدمة وخمسة فصول هى على الترتيب : البلاغة بين التجديد والتقليد - والبلاغة واللغة - والفصاحة - والبلاغة ومقتضى الحال والبلاغة والمجتمع .

فبينت فى الفصل الأول أن الدعوة إلى تجديد البلاغة وتطويرها دعوة تتفق ونظام الكون ، وتتلاءم مع سنة الحياة وأن البلاغة سايرت التطور فى مراحلها المتقدمة ، ولزمت الجمود فى طورها المتأخر .

وعرضت فى ذلك الفصل لاتجاهات التجديد ، مبينا أن أجدرها بالاتباع الاتجاه الأول الذى رفع لواءه رائد المجددين الإمام الشيخ محمد عبده ، والذى يتمثل فى : بعث التراث البلاغى القديم والانتفاع بمعظم ألوان الثقافة فى معرفة الأسرار البلاغية .

وذكرت فى الفصل الثانى أهمية الربط بين البلاغة وغيرها من العلوم ، حيث تمتزج بالحياة ، فلا تبدو علما مستقلا أو مادة معزولة ، وانتهى الفصل بتوضيح منزلة البلاغة ومكانتها من العلوم ، وأنها أجلها قدرا وأسماها منزلة ، لسمو غايتها ، وعلو هدفها .

وتناولت فى الفصل الثالث مقدمة البلاغة المتأخرة بالنقد والتحليل مبينا أنها لاتحقق الهدف الذى وضعت له وهو : بيان أهمية الفصاحة ووجه علاقتها بالبلاغة ، ومعنى البلاغة وأنها بصورتها الكائنة توهم أن الفصاحة والبلاغة شيئان متغايران . كما عرض الفصل لمنهج كل من ابن سنـــان الخفاجى والبلاغيين المتأخرين حول قضية الفصاحة ، وبين أن منهج كل منهما مختلف تماما عن الآخر ، وأن التقارب بينهما لايتجاوز بعض الشواهد والعناوين .

كما بين الفصل أن أهم ماعكر صورة مقدمة البلاغة المتأخرة : العيوب المنفرة بألقابها وشواهدها .

وبينت فى الفصل الرابع أن موضوع البلاغة لا خلاف عليه بين القدامى والمحدثين وأنه يتسع لكل فنون القول ووجوه الكلام بما يصل البلاغة بالحياة ، ويربطها بالمجتمع .

كما بينت أن تذوق البلاغة لا يتأتى على وجهه السليم إلا إذا تم على هدى من ميزانها بمعرفة الأحوال ومقتضياتها المناسبة .

وقدمت لمحة سريعة عن علاقة البلاغة ببعض فنون القول من : شعر وكتابة وخطابة وحوار .

وختمت الفصل بتقرير أن معظم النظريات التربوية تتفق وموضوع البلاغة مستشهدا على ذلك بتجربة لى مع الدرس البلاغى فى كليات جامعة الأزهر .

وذكرت فى الفصل الخامس : أن البلاغة فطرية فى كلام كل إنسان ، وأن الاستعانة بأساليب الناس الذائعة وعباراتهم المشهورة فى الدرس البلاغى يحقق له النجاح ويبعد عنه الجمود والعزلة ويمزجه بالحياة والمجتمع ، مع الاستشهاد على ذلك بعرض مجموعة من العبارات والأمثال التى تضم بعض فنون البلاغة .

الخاتمة

لقد نشأت البلاغة فطرية ممتزجة بالنقد ، وأخذت تمضى فى سبيل التطور ككل شىء فى الحياة ، بامتزاجها بأدب الأمة فى العصور المتقدمة حتى جاء الوقت الذى وقفت البلاغة فيه عن التطور مخالفة بذلك ناموس الكون وسنة الوجود فأضحت بمعزل عن أدب الأمة بما يضم من فنون ، وأوضح شاهد على ذلك أن دارس البلاغة فى هذا العصر قلما يقف على شاهد ادبى فى أى فن بلاغى لأحد من شعراء العصر وأدبائه المرموقين كالبارودى وشوقى وحافظ وغيرهم ، مما يؤكد عزلة البلاغة وبعدها عن النص الأدبى الذى يعد وردها وتعد سناده وميزانه . وأنه ينبغى أن تمتزج البلاغة بتراث الأمة وثقافتها ، وذلك بمباشرة البلاغيين لأدباء العصر والنظر فى آثارهم لتقويمها من الوجهة البلاغية واستمداد الشواهد التى تثرى البلاغة منها .

وإذا كان علماء الفقة ورجال القانون يعملون الآن على تقنين الشريعة لتساير روح العصر، وفتح باب الاجتهاد الذى كان إغلاقه نكبة شديدة على الإسلام والمسلمين .

فإن علوم اللغه عامة والبلاغة بصفة خاصة ينبغى أن يعاد صياغتها وتقديمها بأسلوب يلائم ذوق هذا الجيل وفكره أى أسلوب يكون إلى الوضوح أقرب منه إلى الغموض والتعقيد بحيث ينمى الأذواق ، ويعين على استجلاء أسرار النصوص وكان ذلك هو الباعث الحقيقى وراء دعوات المنادين بالتجديد والتطور .

المصادر والمراجع

مسلسل	اسم المؤلف	الكتاب
١	إبراهيم أنيس . د	اللغة بين القومية والعالمية
٢	« « «	فى اللهجات العربية
٣	إبراهيم اللبان « د »	القرآن وتجديد المجتمع
٤	ابن أبى الحديد	شرح نهج البلاغة ـ ط بيروت
٥	ابن جنى	الخصائص تحقيق : محمد على النجار
٦	ابن خلدون	المقـــدمة
٧	ابن سنان الخفاجى	سر الفصاحة تحقيق : عبد المتعال الصعيدى
٨	ابن رشيق	العمدة ط أولى
٩	ابن طباطبا	عيار الشعر : تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .
١٠	ابن قتيبه	مشكل القرآن ط مراد ملا
١١	ابن الأثير	المثل السائر تحقيق الحوفى وطبانة
١٢	ابن منظور	لسان العـــرب جـ ١ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .
١٣	أبو الفضل الميدانى	مجمع الأمثال تحقيق : محمـــد محيى الدين عبد الحميد .
١٤	أبو هلال العسكرى	الصناعتين ط أولى
١٥	أحمد إبراهيم موسى . د.	الصبغ البديعى ط وزارة الثقافة
١٦	« « « «	البلاغة التطبيقية ط أولى
١٧	أحمد أحمد بدوى «	عبد القاهر الجرجانى ـ أعلام العرب
١٨	« « « «	من بلاغة القرآن ـ ط ثالثة
١٩	« « « «	من النقد والأدب
٢٠	أحمد تيمور	الكنايات العامية ط ثالثة
٢١	« «	الأمثال العامية ط ثالثة

مسلسل	اسم المؤلف	الكتاب
٢٢	أحمد حسن الزيات	دفاع عن البلاغة ط ثانية
٢٣	أحمد الشايب	الأسلوب ط رابعة
٢٤	أحمد الحوفى . د .	الأدب العربى وتاريخه ط دار المعارف
٢٥	الزمخشرى	الكشاف ط بيروت
٢٦	السيوطى	المزهر تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخرين
٢٧	السيوطى	معترك الأقران فى إعجاز القرآن تحقيق : على البجاوى
٢٨	الآمدى	الموازنة بين أبى تمام والبحترى ط رابعة
٢٩	البنانى	التجريد ط أولى
٣٠	الجاحظ	البيان والتبيين ط السندوبى
٣١	الحصرى	زهر الآداب تحقيق : على البجاوى
٣٢	الخطابى	بيان إعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن
٣٣	الرمانى	النكت فى إعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن
٣٤	القاضى عبد الجبار	المغنى ج ١٦ تحقيق : أمين الخولى
٣٥	الهادى كاشف الغطاء	مدارك نهج البلاغة ط بيروت
٣٦	أمين الخولى	البلاغة وعلم النفس
٣٧	أمين الخولى	مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب
٣٨	أمين الخولى	البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها
٣٩	أمين الخولى	فن القول
٤٠	أنور الجندى	المختار من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ط وزارة الثقافة
٤١	بدوى طبانه . د .	البيان العربى ط رابعة
٤٢	بدوى طبانه . د .	قدامة بن جعفر والنقد الأدبى

مسلسل	اسم المؤلف	الكتاب
٤٣	د. حفنى شرف	الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ط أولى
٤٤	د. حفنى شرف	الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ط أولى
٤٥	د. حفنى شرف	تحرير التحبير ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٤٦	خليل الهنداوى	مع الإمام على من خلال نهج البلاغة ط بيروت
٤٧	د. درويش الجندى	النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى دار نهضة مصر
٤٨	د. زكى مبارك	النثر الفنى ط أولى
٤٩	سعد الدين التفتازانى	المطول على التلخيص ط أحمد كامل
٥٠	سيد قطب	النقد الأدبى : أصوله ومناهجه
٥١	د. سيد نوفل	البلاغة العربية فى دور نشأتها
٥٢	د. شكرى عياد	موسيقى الشعر العربى ط أولى
٥٣	د. شوقى ضيف	البلاغة تطور وتاريخ دار المعارف ط ثالثة
٥٤	د. شوقى ضيف	البحث الأدبى ـ مناهجه ومصادره ـ دار المعارف ط ثانيه
٥٥	د. عائشة عبد الرحمن	التفسير البيانى للقرآن الكريم دار المعارف ط رابعة
٥٦	د. عبد الحميد العبيسى	ابن سنان الخفاجى ومنهجه فى النقد والبلاغة ـ رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية
٥٧	د. عبد الحى دياب	التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد
٥٨	د. عبد القادر حسين	أثر النحاة فى البحث البلاغى ـ رسالة دكتوراه مطبوعة ـ دار نهضة مصر
٥٩	عبد القاهر الجرجانى	دلائل الإعجاز تحقيق أحمد مصطفى المراغى
٦٠	عبد القاهر الجرجانى	أسرار البلاغة تحقيق: السيد محمود محمد رشيد رضا
٦١	عبد المتعال الصعيدى	بغية الإيضاح
٦٢	عبد الوهاب حموده	التجديد فى الأدب المصرى الحديث ط دار الفكر العربى

الكتاب	اسم المؤلف	مسلسل
نشأة النقد الأدبي الحديث فى مصر	د . عز الدين الأمين	٦٢
الوساطة بين المتنبى وخصومه تحقيق : على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم	على بن عبد العزيز الجرجانى	٦٤
علم اللغة	د . على عبد الواحد وافى	٦٥
نشأة اللغة عند الإنسان والطفل مكتبة غريب	د . على عبد الواحد وافى	٦٦
الإعجاز البلاغى للقرآن فى تراث الرافعى رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية	د . فتحى فريد	٦٧
لمحات من أسرار البلاغة . دار التراث العربى	د . فتحى فريد	٦٨
روح البلاغة ـ البديع ـ المطبعة المحمدية	د . فتحى فريد	٦٩
أثر القرآن فى تطور البلاغة حتى نهاية القرن الخامس الهجرى .	د . كامل الخولى	٧٠
المذاهب النقدية ـ مكتبة نهضة مصر	د . ماهر حسن فهمى	٧١
من الآيات الكونية فى القرآن الكريم	د . محمد جمال الدين الفندى	٧٢
البحث البلاغى فى كشاف الزمخشرى ـ رسالة دكتوراه مطبوعة	محمد حسنين أبو موسى	٧٣
من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده	محمد خلف الله	٧٤
البيان القرآنى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية	د . محمد رجب البيومى	٧٥
أثر القرآن فى تطور النقد العربى	د . محمد زغلول سلام	٧٦
النبأ العظيم	د . محمد عبد الله دراز	٧٧
النقد والنقاد المعاصرون : مكتبة نهضة مصر	د . محمد مندور	٧٨
النقد المنهجى عند العرب . مكتبة نهضة مصر	د . محمد مندور	٧٩

مسلسل	إسم المؤلف	الكتاب
٨٠	محمود تيمور	مشكلات اللغة العربية . مكتبة نهضة مصر
٨١	مصطفى صادق الرافعى	إعجاز القرآن ط : التجارية
٨٢	مصطفى الصاوى الجوينى . د	منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه : ط ثانية
٨٣	مصطفى عبداللطيف السحرتى	الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
٨٤	يحيى العلوى	الطراز ط المقتطف

ملحوظة : المراجع السابقة هى التى وردت فى ثنايا البحث وانتفع بها انتفاعا مباشرا ، أما المراجع التى أسهمت فى بناء البحث ولم ترد فى ثناياه فقد تركت بدون تدوين .

محتويات البحث

الموضوع	الصفحة

تصويب الأخطاء

ص	س	الخطأ	الصواب
٦	٢٢	والمصريين	والمسلمين
٧	١٠	فيها	بهما
٧	١١	ومنها	منهما
١٤	١٥	لبلاغاتنا	لبلاغتنا
١٦	١	تتمثل	يتمثل
١٨	١٧	(١)	(٢)
٢٠	١٨	دارستها	دراستها
٢٠	٢١	الأربية	الأدبية
٢١	١٣	عمار	غمار
٢٢	٧	وتحويلها	تحويلها
٢٤	٢٣	١٩٧٦	١٧٦
٣٣	٣	الظاهرة	—
٣٣	١٢	المنحنى	المنحى
٣٥	١٦	والإجتماعية	والمجتمع
٢٦	٢٠	ولقيمتها	لقيمتها
٣٧	٢٠	عرن	عرق
٣٧	٢٠	والاخفاء	والاصغاء
٣٩	٢١	الافاة	الإفادة
٤٢	١٥ ، ١٦	من أستعمال	من أستعمال الحروف الضعيفة واللينة والخفية والمهموسة للاعمال الضعيفة وأستعمال الحروف القوية والظاهرة والمجهورة للاعمال القوية

ص	س	الخطأ	الصواب
٤٧	١٩	وتمحيض	وتمحيص
٤٩	١	ولا سبيلا	وسبيلا
٤٩	١٦	عيوب الأخبار	عيون الأخبار
٥٢	١	يعتمد على	يعتمد على اللغة
٥٤	١١	لا تكون	لا نكون
٥٤	١٢	بلاءمة	ملاءمة
٥٤	١٦	ولهذه	لهذه
٥٦	٢	يعتقونها	يعتنقونها
٦٠	١٦	خيالية	خالية
٦٠	١٨	يحي	يحيى
٦١	٧	بينها	بينهما
٦٣	١٧	لبض	لبعض
٦٤	٨	التأمل	والتأمل
٦٤	١٨	بجال	فى مجال
٦٦	٢	نهج تحدث	نهج
٦٨	١٧	حقيقة	حقيقة
٦٨	٢٣	ومن والآب	ومن النقد والآب
٧٢	١٠	العرابة	الغرابة
٩٢	٢٠	عن المعنى الأول والمعنى الاول	عن المعنى الأول والمعنى الثانى
١١٣	١١	ابن عن	ابن علس
١٣٢	١٨	موهبة	موهوبة
١٣٢	٢٠	ولعكنهم ليسو	ولكنهم ليسوا
١٣٣	٢	لقبك	لقلبك

هناك تصحيفات أخرى معدودة عداما تقدم ، وقد أغفلت التنبيه عليها لوضوحها وعدم خفائها على القارىء العادى .

دار التوفيقية
للطباعة بالأزهر